سميح القاسم

قصائد مختارة

الكتاب: قصائد مختارة (مختارات)

الكاتب: سميح القاسم

الطبعة: ٢٠١٨



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

القاسم ، سميح

قصائد مختارة

سميح القاسم – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ٧- ١٤٩- ٤٦٦-٩٧٧-٩٧٨

.. ص،.. سم. ١– الشعر العربى – تاريخ –العصر الحديث

أ – العنوان ٨١١,٩ رقم الإيداع: ١٠٢٠٦

قصائد مختارة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

شاعر فلسطيني عُرف بين قراء الشعر وكتّابه بعشقه الدائم لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وربما يكون ذلك قد أدى إلى سجنه مرات عديدة، ليس هذا فحسب بل اضطرت قوات الاحتلال أمام إصراره على المقاومة أن تضعه رهن الإقامة الإجبارية والاعتقال المنزلي لإبعاده عن العالم المحيط به، كما أن هذا الموقف الشجاع من الاحتلال تسبب في طرده من عمله عدة مرات.

الشاعر سميح القاسم، الذي أجاب عندما سئل عن موقفه من التطبيع العربي مع إسرائيل بقوله: "لو طبع كل العرب سوف يبقي واحد في الجليل رافضاً للتطبيع هو سميح القاسم"، إنه الشاعر الذي اشتغل معلماً وعاملاً وصحفياً، حيث أسهم في تحرير جريدة "الغد" و"الاتحاد"، ثم رئيس تحرير مجلة "هذا العالم" عام ١٩٦٦، ثم عاد للعمل محرراً أدبياً في "الاتحاد" وسكرتيراً لتحرير "الجديد" ثم رئيساً للتحرير.

كما أسس القاسم منشورات "عربسك" في حيفا مع الكاتب عصام خوري عام ١٩٧٣، وفيما بعد أدار "المؤسسة الشعبية للفنون" في حيفا، وهو – حالياً وحتى تاريخ الكتابة – اليوم رئيس مجلس إدارة تحرير "كل العرب" الصادرة في الناصرة، ورئيس تحرير الفصلية الثقافية "إضاءات".

صدر له أكثر من أربعين كتاباً في الشعر والقصة والمسرح والمقالة، وصدرت أعماله في سبعة مجلدات عن ثلاث دور نشر في القدس وبيروت والقاهرة، وترجم عدد كبير من قصائده إلى كل من: الإنجليزية، والفرنسية، والتركية، والروسية، والألمانية، واليابانية، والإسبانية، واليونانية، والإيطالية، والتشيكية، والفيتنامية، والفارسية، ولغات أخرى..

وحصل عن أعماله على الكثير من الجوائز منها: "غار الشعر" من إسبانيا، وجائزة البابطين للإبداع الشعري، وجائزة نجيب محفوظ للأدب العربي.

ولد القاسم لعائلة درزية فلسطينية في مدينة الزرقاء الأردنية عام ١٩٣٩، وتعلّم في مدارس الرامة والناصرة، وعُلّم في إحدى المدارس، ثم انصرف بعدها إلى نشاطه السياسي في الحزب الشيوعي قبل أن يترك الحزب ويتفرّغ لعمله الأدبي، فهو شاعر مكثر يتناول في شعره الكفاح والمعاناة الفلسطينيين، وما إن بلغ الثلاثين حتى كان قد نشر ست مجموعات شعرية حازت على شهرة واسعة في العالم العربي، كما كتب أيضا عدداً من الروايات، ومن بين اهتماماته الحالية إنشاء مسرح فلسطيني يحمل رسالة فنية وثقافية عالية كما يحمل في الوقت نفسه رسالة سياسية قادرة على التأثير في الرأي العام العالمي فيما يتعلّق بالقضية الفلسطينية.

يرى القاسم أن الأمة العربية متورطة في أكداس العراقيل والإشكاليات الكارثية التي تشوش مسلكها وتربك مسيرتها، من ذلك مثلا ارتفاع معدلات الأمية بشكل فج، مشيراً إلى دور الكاتب في بعث الروح

الخلاقة المبدعة داخل المواطن العربي، وليكون المثقف الشرارة التي تشعل الحماس في نفوس العرب، وليسعوا وراء البحث عن الحلول القويمة لقضايا الشعب والوطن والمجتمع والسياسة عن طريق الكتابة؛ فالمثقف يجب ألا يعيش في برج عاجي.

ويؤكد أن القضية الفلسطينية أهم محطاته الأدبية، بل هي محطته الرئيسية فمحور أدبه يدور حول هذه القضية التي يرى أن حلها يكمن في ضرورة التحاور بين الأشقاء العرب والعودة إلى مفاهيم القومية العربية وضرورة إعلاء قيم العدالة الاجتماعية والتأكيد بشكل مستمر على وحدة الكيان العربي، وبغير ذلك لن تحل القضية، مبيناً أن خلافات الداخل الفلسطيني تضرب بالأهداف القومية العربية والفلسطينية في مقتل، حيث تعد هذه الصراعات والخلافات ربحاً صافياً للمخططات الاستيطانية الصهيونية الحالية.

ويشدد على أن موقفه من التطبيع لن يتغير؛ فلا تطبيع مع الجانب الإسرائيلي مهما تغيرت الظروف غير رافض للتحاور والتباحث عن السبل المتاحة لتسوية هذه القضية في الوقت الحاضر، وأن الشعر لا يزال ديوان العرب وأنه لا يعاني أزمات كما يدعي البعض مؤكداً على قوة البناء الشعري العربي وتفرده بين أشعار اللغات الأخرى.. وفي السطور التالية أهم ما دار في الحوار.

ففي متناول رده على سؤال عن دوافع كتابته للرواية، قال: كتابتي للرواية لا تنم عن توجه أصيل ورغبة حقيقية ألمت بي، بل هي مجرد نزوة

وهروب من الروتين؛ فكتابة الشعر بالنسبة لي هي الأمر العادي والعمل الطبيعي كالأكل والشرب، والتفكير في كتابة صنف أدبي غيره لن يكون إلا مجرد محاولة للهروب من الرتابة والملل سرعان ما تزول هذه الرغبة وأعود إلى عالم الشعر مرة أخرى، وجاءت هذه الرغبة بالتحديد عام ١٩٧٧ عندما رأيت أن محاولة الخروج من الرتابة والروتين اليومي أمر مهم؛ فكان العمل الأول من عملين يطلق عليهما النقاد مسمى الرواية وأسميهما أنا "الحكاية الأوتوبيوجرافية" لأن فيها تداخلا بين الحلم والتجربة الشخصية، والعملان هما حكاية تحت عنوان "إلى الجحيم أيها الليلك" أنجزتها في عام ١٩٧٧، وتلاهما العمل الآخر وهو حكاية "الصورة الأخيرة في الألبوم" أنجزتها عام ١٩٨٠.

وأضاف: في أمريكا اللاتينية ربما يكونون الآن يعيشون عصر الرواية، أما الرواية العربية فلا يمكن القول إنها تعيش عصراً من الازدهار، بل ما يمكن قوله إن كتاب الرواية يعلون من هذا القول فقط وهذا حقهم، ويؤسفني أن أقولها بدون تردد إن الشعر ما زال ديوان العرب، وسبب أسفي عدم رغبتي في استفزاز إخوتي الروائيين العرب، فالشعر حتى هذه اللحظة مازال ديوان العرب.

وعن موقفه من التراث الشعري، يؤكد أن قراءة شعر السابقين أمر مهم وضروري كذلك ومحاولة الاستفادة من بناء القصيدة القوي وتعبيرات الشعراء القوية، وضرورة الوقوف على ما أبدع فيه السابقون ومحاولة إكمال ما أبدعوا فيه، موضحاً أنه في نفس الوقت لديه محاذير كثيرة في هذا

الإطار للتمييز بين الاستفادة مما كتبه الشعراء القدامى من ناحية وتقليديهم من ناحية أخرى، فإنه لا يحب الاستنساخ سواء أكان بشريا أم حيوانيا والاستنساخ الثقافي أو الإبداعي، فالشعر الذي يكتب الآن يجب أن يكون وليد الظروف الحالية بعيدا كل البعد عن الشعر، الذي كتب في عصر قديم سابق.

وعن علاقته بالسياسة، يقول: بدايتي مع العمل السياسي لم تكن حزبية على الإطلاق ولكن بدأت مستقلا، فأفكاري في شبابي الأول كانت أفكاراً قومية ناصرية، وما زال في نظري أن الرئيس الراحل عبد الناصر القامة الثانية بعد الرسول ﷺ في تاريخ العرب، ولذلك الموقف الشعوري والفكري والسياسي كان دائماً موقفاً قومياً تقدمياً وليس قومياً شيوعياً، ولكن كان الحزب الشيوعي هو الإطار الوحيد المعادي للصهيونية في بلادنا، ولذلك كان من الطبيعي أن أتعاون مع هذا الإطار، وأعتز بالمناسبة بكل لحظة قضيتها في النضال ضد الصهيونية في صفوف هذا الحزب، وفي الآونة الأخيرة وبالتحديد خلال العقد الأخير من القرن الماضي، وبعد ظهور "البيروسترويكا" و"الاجلاسنيوس" دعيت شخصياً للقاء مع الرئيس السوفييتي "ميخائيل جورباتشوف" وخلافي مع الإطار بدأ مع بداية الانهيار، وصعوبة التفاهم مع بعض العقليات "الإستالينية" القديمة دفعتني للاستقلال التام عن أي إطار حزبي، وأنا أطالب الآن بموجب استقلالي بعضوية الأمم المتحدة بدولة مستقلة.

وعن تفرد القاسم علي الصعيد الأدبي، كتب الناقد الأدبي سليم الحسني عنه قائلا: عندما نقرأ شعر القاسم في مراحله التاريخية المختلفة، نكتشف أنه كان يسعى لتقديم أطروحة شعرية عن الثورة، ولم يؤسس هذه الأطروحة بشكل منفرد وبنظرة خاصة منطلقة من رغبة في الخروج على واقعه المرير، أو على أمنية داخلية متعلقة بحالة النصر، إنما استند في ذلك إلى رؤية قومية تميز بها.

ويواصل: يتحرك القاسم في شعره الحماسي من قاعدة ثورية أخذت الكثير من تفكيره واستقراءاته، وهذا ما يتضح من خلال ثبات المضامين الشعرية التي كتبها في فترات زمنية مختلفة، حيث نجد بقاء الفكرة والموقف على ما هما عليه، دون تغيير في الأسس، رغم تبدل الصورة التي تستوعب كلاً منهما أو كليهما، مما يشير إلى عمق التصور الذي كونه الشاعر حول مسيرته، وإلى إيمانه بخط التحرك الذي سلكه منذ البداية.

ويضيف الحسني: في بعض الفترات كانت ثمة مواقف تبدو مظلمة، حيث يسيطر إحساس الانكسار على الشاعر بدرجة ملحوظة، عندما يتحدث عن واقعه، ويتنقل عبر نقاطه على مشاهد المأساة والحزن والألم، لكن اعترافاته بالهزيمة، لا تشكل انهياراً ذاتياً يجعله يسقط في حالة اليأس التام، فتتلاشى طموحاته وأحلامه، وتموت في داخله أطروحته الراسمة طريق الغد، فإن ذلك لم يحدث بهذه الصورة المخيفة، وإن ما ظهر من نتاج الشاعر في هذا الخصوص، إنما مشاعر مشتركة بين كل أبناء البلاد العربية والإسلامية.

ويشير إلى أن شاعرنا كان يصف الواقع العربي، ويتحدث عن التردي الذي أحاط به كإنسان ينتمي لفلسطين ولغير فلسطين، وكان في حديثه عن الألم يحاول أن يسحب بطريقة سرية مسمار الأمان ليفجر العبوة، وهو في هذا الاتجاه الذي يتناول فيه مظاهر الهزيمة والضعف في الواقع العربي، يقدم مظهرين متقابلين لحالة القضية الفلسطينية، وكأنه يريد أن يعلن مظلومية فلسطين على أكبر مساحة مرئية، ليثير ما يستطيع إثارته من مشاعر التعاطف، ومن ثم التفاعل معها، حتي لا تضيع في النسيان، ولتظل شاخصة أمام الأعين وحية في الضمائر.

ويوضح أن المشروع الشعري في الثورة لسميح القاسم يتألف من ثلاثة أجزاء متميزة أولها، يشمل الدائرة الشخصية وإيمانها العميق بقيم وثوابت يلتزم بها الشاعر، ويتحرك الجزء الثاني على العلاقة الترابطية الوثيقة بين الماضي والحاضر، حيث يؤكد الشاعر القيمة التراثية الكبيرة للتاريخ ودوره الدافع للأحداث ضمن عملية صنع الحاضر، وذلك وفق منظور قومي صرف، ويشغل هذا الجزء المساحة الأكبر من المشروع، أما الجزء الثالث فإنه يتركز حول حتمية الانتصار في المستقبل، والذي جاءت الانتفاضة لتحتل موقع المستقبل الذي انتظره وبشّر به في شعره.

ويخلص إلى إبحار في شعر القاسم، حيث يقارن بين اليهود وشعب فلسطين بين التاريخ والحاضر، متحدثا عن التيه اليهودي الذي استقر فيما بعد في فلسطين، بينما تشرد شعبها في الأرض وصار هو الغريب، وذلك في قصيدة (غرباء):

سنوات التيهِ في سيناء كانت أربعين

ثم عادَ الآخرون ورحلنا.. يوم عاد الآخرون

فإلى أين؟.. وحتَّامَ سنبقى تائهين

وسنبقى غرباء؟

وفي قصيدة (بوابة الدموع) يقدم المشهد الثاني الذي تتحرك مفرداته داخل فلسطين بشكل رئيسي:

أحبابنا.. خلف الحدود

ينتظرون حبةً من قمحهم

وقطرةً من زيتهم.. ويسألون

كيف حال بيتنا التريك

وكيف وجه الأرض.. هل يعرفنا إذا نعود؟!

يا ويلنا..

أي شعب لاجيء شريد

يا ويلنا.. من عيشةِ العبيد

فهل نعود؟ هل نعود؟

أما الناقد الأدبي الفلسطيني حسن الباش يرى أنه لم يكن وجود الشعر الفلسطيني المقاوم وجوداً مغلقاً أو متقوقعاً أبدًا، كما يدعي البعض بل إن هذا الشعر انطلق ليبشر بإنسانية هذا الأدب وعالميته، ولعل ما يجعله ينطلق نحو الإنسانية الإيمان الملتزم بأن قضايا التحرر في العالم هي قضايا واحدة ترتبط فيما بينها برباط الحرية.

والالتزام بحد ذاته حدد للشاعر الفلسطيني المقاوم ملامح وجوده في وطن تربطه بالعالم قضايا تحررية معينة؛ لنلاحظ أن موقف الشعر الفلسطيني المعاصر لم يكتف بالغناء من أجل الثورة، بل حرض عليها في بلدان العالم الإمبريالي، مؤكداً أن الظلم الذي يلقاه ابن أمريكا الفقير ما هو إلا ظلم الإمبريالية لكل الشعوب، ولذا نجده يقف موقفا حازما حتى من القضايا الاجتماعية التي يعيشها أبناء الشعوب في كثير من أقطار العالم.

ويستشهد على ذلك بقول شاعر القضية الفلسطينية الأول سميح القاسم في قصيدته "القارة المجهولة":

من أين يبلغك الطريق

من أين أحياء شيكاغو الفقيرة

من أين تبلغ جذوتي

ليكود ميلاد الحريق

موضحا أنه ينتقد الأنظمة الإمبريالية انتقاداً واقعياً حيث بين مقاصد تلك الأنظمة، وبالتالي يحرض الشعب على الثورة ضد كل النظم المستغلة، قائلا:

يا ناطحات السحب يا أكداس أكواخ حقيرة

مدي يديك من الظلام

فإن رايتنا الكبيرة

أبدًا يشع حنينها لمجاهل الليل العميق

ويربط الشعر الفلسطيني المقاوم بين التقدم المادي للحضارة المزيفة، وبين قهر الشعوب، فكل شبر يزرع في أمريكا هو على حساب قتل فيتنامي، وكل حجر يعمر في واشنطن يعني تهديم منزل في فيتنام، ونحس بأن هذا الربط قد أعطى الشعر قيمة كبرى لا سيما أن أساليب الشعراء اعتمدت على المفارقات الموضوعية والتناقضات الاجتماعية والسياسية بين الشعوب.. يقول سميح القاسم مخاطبا واشنطن:

من أين؟

في فيتنام مذبحة وأنت تصدرين

كعكاً وأدوية إلى القمر الحزين

وتكنسين على دم الجرحى الزبالة

ويخلص الباش إلى أنه حينما تحصر القضايا العالمية التحررية وتحدد، فإنه من المؤكد أن يكون الشعر الفلسطيني المقاوم أكثر الآداب تعاطفا معها، بل إن كل قضية من القضايا كانت تدخل ضمن تفكير الشاعر

وتخرج في شعره على شكل رؤى مستقبلة تتلاحم فيها المصائر لدى الشعوب، ويمكن أن يدخل في هذا النطاق اعتزاز الشاعر الفلسطيني بأبطال الثورات العالمية الوطنية التحررية وتقززه من وحشية الإمبريالية العالمية، مثل تعاطف الشاعر الفلسطيني مع شعب هيروشيما، وقد ندد وندد بالإمبريالية، ووجد في ثوار الفيتكونغ شعلة حرية ونضال، ولم يترك أي جانب من جوانب القضايا الأخرى، يرى في حديثه عن رجالات الثورات تجسيدا للثورات نفسها ومعنى من معاني نضال الشعوب، حيث يقول سميح القاسم في (إلى بول روبسون) مبينا نضاله في سبيل التغيير والحرية:

من أقصى أطراف الدنيا

ينهل غناؤك في بيتي

ويرفرف في قلبي

عصفوراً أسمر منفياً

يا فاضح جور الإنسان على الإنسان

والآن يمكن أن نستمتع بمختارات من شعر الشاعر الكبير سميح القاسم.

الناشر

ادفع!

الطائرة الإسرائيلية

العائدة إلى قواعدها سالمة

تترك وراءها خطاً أبيض طويلاً

(أطول من شراييني أطول من أنابيب النفط)

ذلك الخط المتوعد كحبل المشنقة

هو البيت الأول في النشيد

أما بعد،

فلا وزن يستقيم مع صرخات أطفالي الأخيرة

هل قلت أطفالي؟

لم أزر صور.

لم أتمدد على كرسي القماش الملون

في شرفة فندق صيداوي

لم أنشد مطلعاً لجماهير بيروت

هل قلت أطفالي؟

أنا المحروم من شرف التفجر بديناميت الحب

أنا أسير الحرب المتمتع بحق الانتخاب

أنا المواطن المقيم دائماً على مجرود الزبالة

هل قلت أطفالي؟

لتزدرد الأسرار أسرارها

كامل هو الوضوح

سلام روحي غير منقوض

القصف براً وجواً وبحراً

بيانات الاحتجاج والإدانة

دمى الأطفال

وجماجمهم المتناثرة

تحت جنازير الدبابات المتقنة

الخضرة المتلاشية في الضجيج

وقع الأقدام المرتجفة تحت بقايا الأدوات المنزلية

تكمش الأكف الغضة على فولاذ البنادق

هل قلت؟

لا أتدخل في الموازنات الدقيقة

يكفيني دمي ووضعي الدقيق

يكفيني سؤالي الصغير: لماذا؟!

ولا أكتم سراً

الوردة للتفاحة

التفاحة للحجر

وأنا أنزف وحيداً

أنزف دمي الثرثار الصادق الحار

أنزف دمي المرهون بالرحمة، مثل عنق طفل

لماذا؟ لماذا؟

أدرك معجزتي الخاصة

ولا أكتم سراً

لم أتوقع هذه الخيبات

ومع ذلك أيها السادة

لن تتمتعوا ببكائي

رغم ذلك

لن أتنازل أيها السادة

اخترتم عذابي

وأختار حياتي وموتي

وأنا أعرف كيف أدافع عن خياري الوحيد

أيها السادة

أيها الخنازير..

تقرير من الجبهة

من منزل مهدم

لمنزل يصيح كل حجر منه

بكل حجر منه

بكل شيء

من حوله:

"تقدم"

من ساحة ملغومة لمدرسة

يتابع الغزاة زحفهم

ويلقون حتفهم

بالراية المنكسة!

جسم بدون رأس

رأس بدون فم

تحت جليد الشمس

يصرخ في العدم

رأيت رأي العين

مقاتلاً في العاشرة

يمشي بلا ساقين

ووجهه..

للناصرة!

بعينيها الكحيلة

بالشفة البتول

بالوردة الحمراء في الجديلة

حبيبتي،

أميرة الفصول

تقاوم المدافع الثقيلة!

من طلل المخيم

يأتون

من خنادق التحدي

في شارع تهدم

يأتون

من كهف ومن خرابة

براية الصمود والتصدي

ويبصقون دمهم في جبهة الدبابة

يأتون بالأرز وبالزيتون

يأتون بالبيارق

يأتون في الحرائق

يأتون

من عكازة الشيخ

ومن شهية الجنين

يأتون بالحب وبالحنين بالموت واليقين يأتون

فأمدد أذرع الدمار

يا أيها التنين

كل ذراع

فوقها .. خضر وسيف نار!!

إلى أن يصدر الحكم

لو أن أحداً روى لي هذه الحكاية لما صدقت

لكن كيف أكذب عينيَّ الملطختين بالدم ويدي؟

عشت على تلك الجزيرة ثلاثين شتاءً وربيعا

عشت فضيحة النهارات وستر الليالي

عشت الأشجار الصخور الرائحة المالحة الحرائق

عرفت صياد السمك عن كثب

عرفت زوجته التعيسة وشبكته الفظيعة.

يعتبره بعضكم سفاحًا رهيباً

يعتبره آخرون ضحية بريئة

أما أنا فلا أستطيع أن أكون قاضياً

إنني كما تعلمون بحاجة إلى من يحكم عليَّ

لا أنكر أنني قتلت صياد السمك المذكور أعلاه

لكنني لا أعلم إذا كنت أنا الآخر

مجرماً أو ضحية.

حدث ما حدث، في طقس أحمق

يتوقف المطر فجأة

ترتفع الحرارة من ٣ تحت الصفر حتى ٥٤ فوق الصفر

فجأة ترتجف البارومترات في هلع ظاهر

مصحوبة بالبروق والرعود

فجأة يضج نور النهار

تهبط العتمة الصلبة والكوابيس.

كان صياد السمك رجلاً عادياً

يشبه سكان حوض البحر الأبيض المتوسط

يلتقي في ملامحه الأوروبيون بالآسيويين بالأفارقة

أما زوجته فكانت مخلوقاً غريباً كما تعلمون

كانت عالية مثل صارٍ خرافي

رأسها مخروط هائل أملس

تغطي ساقيها الثخينتين فروة شوكية

فمها في سرتها

ويخفق فوقه نهد كبير وحيد

أما عيونها الكثيرة فتحيط بكتفيها مثل الاستواء.

لم يكن صيادنا قانعاً بزوجته

ولم يجد العزاء في السمكة الذهبية.

قلت له مرة: "لماذا تزوجتها"؟

قال :"كان لابد لي من زوجة ولم تكن على الجزيرة امرأة غيرها!

وبعد إذ تزوجتها تدفق المستوطنون على الجزيرة

وازدحمت شواطئها الناعمة الدافئة بالنساء الجميلات".

طالما غالب صياد السمك التعيس غيظه المسعور كحية الظهيرة

طالما تقلب على الرمال الهشة في غمرة الطقس المجنون

طالما هرب إلى أعالي البحر ليغرق هواجسه

لكنه عاد دائماً بالصدف الخالي والنزيف.

ليلة البلود الأسود

هبط صيادنا تحت أثقال لواعجه

خطف من قاع قاربه بلطة مشحوذة حتى ليستطيع المرء أن يحلق بها لحيته

خفش في الرمل الرهو نحو كوخه المتطامن تحت الريح

والظلام

تطلَّع عبر النافذة الوحيدة

شاهد زوجته المتمددة على المصطبة المفروشة بالقش والحسك

دفع الباب بحذر شديد

وقف فوق رأس زوجته النائمة

حدَّق فيها بهلع

وقبل أن يتراجع أمام زحمة الشكوك والهواجس

قبل أن يرخي التردد عضلات ذراعيه البائستين كفرعي

شجرة عاقر

رفع البلطة إلى أقصى مبلغ فوق رأسه

وأهوي على عنق الزوجة الوادعة.

انفصل الرأس عن الجسد دون نأمة

اجتاحت الصياد الملعون حمى وحشية

وأقبل على الجثة يقطعها أشلاءً وهو يهذي:

"لا .لا . لن أحمل وحدي كل هذا العذاب بعد اليوم

لن تتقطع شراييني على نصال الدهشة الدائمة

لن تكون بشاعة الزمن والمسافة قسمتي وحدي!!"

لملم الصياد المنكوب أشلاء زوجته الشهيدة،

دسها في كيس ضخم. وحملها إلى البحر

كانت العاصفة تلف أمواج البحر الهائج

كشيخ يلقي سيجارة

وقف صياد السمك على الشاطئ الزنخ

وفي الماء الداكن المحتقن بالأسرار

أفرغ كيسه الرهيب (في المقلاة الهائلة التي نسميها أيضاً "البحر")

هرعت أسراب الأسماك الجائعة

وراحت تقضم الأشلاء بأسنانها النهمة المدببة كمسامير نعش

قذف الصياد بشبكته الوحشية

وأطبق على كومة من السمك المذعور

في الصباح أكل سكان الجزيرة أسماك الصياد

وسرعان ما امسخوا مثل زوجته

أما أنا أيها السيدات والسادة

فكنت أراقب كل ما يجري

من فوق صخرة هائلة..

كان عليّ أن أفعل شيئاً لإنقاذ من تبقى من آدميين على الأرض

بيد أنني كنت عاجزاً عن الهبوط من على صخرتي العملاقة

أمرت البحر: أيها البحر، ارسل إليَّ ثلة من أمواجك!"

أقبلت ثلة الأمواج وراحت تلطم صخرة الملح من كل جانب

وئيدا وئيداً ذابت صخرة الملح فاستويت واقفاً على أرض الجزيرة

خففت إلى قارب الصياد

أخذت بلطته الرهيبة

أهويت بها على عنقه

وانفصل الرأس عن الجسد دون نأمه.

ونجا من بقي على الأرض من آدميين سويين.

لو أن أحداً روى لي هذه الحكاية لما صدقت

لكن كيف أكذب عينيّ الملطختين بالدم ويديَّ؟

تكلم أيها البحر!

وانطقي أيتها الجزيزة

القصيدة المفخخة

لابد أن تمضي

ظلامك حالك؟

لا بأس،

مد يديك في حذر

وحاول أن تصيخ القلب

حدِّق بالأصابع

ولتكن أذناك

في هذا الظلام عصاك

لا !

ما أنت بالأعمى

ستفهمني

ظلامك دامس

وعليك أن تمضي

لديك رسالة

والنور في علب العرائس أنت تفهمني

تقدم!

بترتك طائرة بريش جناحها

أبصرت لحمك طائراً

ترتج في منقاره الدموي سنبلتان

واحدة لطفل جائع

سقطت على أبويه جدران المخيم

ولشعر من أحببت سنبلة

تقدم

نضجت سنابلك اليتيمة في جهنم

لا بد أن تمضي

سمعتك صارخاً من قاع موتك:

أقبلوا

أو فارحلوا

فرجت كربتكم نهاراً

أقبلوا

أو فارحلوا

سريت عنكم في الليالي

ووهبتكم نصراً

وما حملتكم عبء القتال

يا أيها الموتى بلا موت

تعبت من الحياة بلا حياة

وتعبت من صمتي

ومن صوتي

تعبت من الرواية والرواة

ومن الجناية والجناة

ومن المحاكم والقضاة

وسئمت تكليس القبور

وسئمت تبذير الجياع

عليَّ الأضاحي والنذور

لابد أن تمضي

عذابك سيد

ويداك جاريتان

في قصر الخليفة

أنت تدرك

أنهم أخذوك ليلاً

كي يعودا وحدهم ملء النهار

أتقول لي؟

عفواً،

كلامك رائع

لكنهم ماضون في القصف الإذاعي

انتبه!

لك أنت صاروخ حقيقي

وللأعداء صاروخ الحوار

وتقول لي؟

الإخوة الأعداء يفترسون حلمك

مرة أخرى

وأنت تقول لي

عفواً،

سمعتك مرة أخرى

كلامك رائع

أنا لم أقاطعك

انتبه!

في الشرفة البيضاء قناص

يسدد نحونا حجراً من الأنقاض

اسندني

دوار البر يجرفني

إلى بحر الدوار

ويداي جاريتان

ميتتان تحت جنود قيصر

وتقول لي؟

الله أكبر!

من وحشة الوادي القديم

طلعت مغتبطاً

تزين صدغك الدامي قرنفلة

وتسطع في جبينك نجمة حمراء

كان جوادك المجنون

يصهل عارياً في السهلكان النرجس المغرور

مأخوذاً بسحرك

زغردت بنت من الشرفات

أجفلت الشوارع

واحتمى القناص ثانيتين

لم أبصرك

قيل سقطت تحت اللوزة الخضراء

قيل تخضبت عصفورة خفقت قربك

واحتمى القناص ثانية

وعاد

لم أنس

قيل تداولتك رصاصتان

وقيل إن شظية

ثقبت على يدك الضماد..

فيتو!

هنالك صيغة غير التي تروي

هنالك صورة من ساحة الأحداث

هم قتلوا المصور

نحن نعرفهم

ونعرف لعبة الإعلام

ندرك ما يريد "العالم الحر".

المكبل بالأساطير الحقيرة

نفهم الأعداء من ألف إلى ياء

ونعلم أنهم قتلوا المصور ضاحكين اصخ قليلًا قلبك المشحوذ بالطلقات

ضحكتهم ترفرف

نورساً فوق الخليج

وناقلات النفط تضحك

دعني أقبل

– يا حبيب الله والإنسان –

جرحك

فيتو!

ولي صبح يغادرني

كما غادرت صبحك..

يومان

أسبوعان

شهر طافح

عامان

قرن

هل تعبت؟

تعال يا ولدي

أنا مهدت صدري

كي تريح عليه جثتك الفتية

وتعال يا ولدي

لألقي رأسي المقطوع

بين يديك

قد أرتاح من موتي البطيء

على رصيف الأبجدية

الوردة الحمراء تقتلني

كما قتلتك أنت البندقية!

ها هم هنالك

في خرائب جثتي يتجامعون

ها هم

تفض بكارة أخرى أمام عيونهم

تصطك في شبق مفاصلهم

وتصل مهرة الشهوات

تنفجر الأصابع والعيون

ها هم هنالك

جوعهم حنش

وأيديهم أظافر

ها هم هنالك

في المواطن والمنافي والمهاجر

يبكون في أعراس موتاهم

تهز الأرض دبكتهم

وتكتسح المنابر

ولنا التمزق والتفجر والجنون..

سأعود أمس

أعود أمس من السفر

ويعود للغيم المطر

وتعود أنت إلى أمس

تعود محمولاً على الأكتاف نعشا

وتعود أغنية وسنبلة وعرشا

وتعود عصفوراً يرمم في خراب الأرض عشا

وتعود

قنديلاً

قنديلاً على الطرقات

منديلاً على الشرفات

أعراساً

ولادات

أسر

ولك القضاء

ولي القدر

لا بد أن أمضي

ظلامي حالك

لا بد أن تمضي

ظلامك حالك

الشمس من غرب إلى شرق

وروحي في الفضاء جذورها انتشرت

وفي أعماق بئر النفط

أوراق سر موتي وازدهر

فاقطف ثمار الموت

يا ابن الموت

روحك

في تراب الموت أنضجت الثمر

يا أيها البدوي

أدرك أننا روح موزعة علي جسدين

آدم حسرتي

حواء حزنك

واحتراق يديك بين يدي

أجناس البشر..

يا أيها البدوي

سوف نعود أمس

نعود...

ما رضوان؟

ما الجنات تجري تحتها الأنهار؟

ما الحشر المباغت؟

ما سقر؟

لابد أن أمضي

عذابي وردة

وفمي حجر..

دونت عنواني

ورقم الهاتف السري

في سيارة ملغومة

ودفعتها في البر

لم أحدس

بأن غزالة زرقاء

سوف تلومني أبداً

قتلت حبيبها

ونثرت عنواني

ورقم الهاتف السري

في أشلائه

وقتلت سنبلة ووردة

ونكصت مغموماً

وكنت أنا القتيل

وقاتلي ذئب خرافي

كساني الخلق جلده!

كدست أشلائي

وأشلاء العدو

(دماؤنا اختلطت)

وصورة منزلي المنسوف ظهراً

والأضابير الصغيرة والكبيرة

والتقارير الوفيرة

والقرارات الخطيرة

والإدانات الكثيرة

والنداءات المريرة

كلها كدستها

مختومة بالشمع والقصدير

فوق سفينة ملغومة

ودفعتها في البحر

لم أحدس

بأن "القرش" سوف يلومني

لا بأس

إن يدي على ظهري

وساقي في فمي

لا بأس

قلبي في الشوارع

طفل بلا أهل

دماه كثيرة

يتم وأر. بي . جي

وجثة أخته الصغرى

وآلاف الحواجز

والجنائز

والمواقع

لا بأس

قلبي في الشوارع

طفل بلا أهل

تطوحه الزوابع في الزوابع

ويكون أن يغمى علي الفولاذ

تخلع جلدها الأفعي

تراودني قبيل الضوء حدأة

ويكون أن يتضاءل الزيتون

ثم يكون

أن يلد المدى شجراً من الأسمنت

ثم يكون أن نيازكاً تنقض فجأة

ويطل من صدع المسافة

ولد تطوحه الخرافة في الخرافة

ولد يهودي صغير

نسيته في أنقاضها الأفران

واهترأت على أضلاعه الأسلاك

قلت: أخي تصير

ولد يهودي صغير

في قلبه قمر هلامي

وفي شفتيه أغنية

عن الناي المكسر في البراري

عن قطيع مات راعيه الضرير

ولد يهودي فقير

قاسمته خبزي وأزهاري

وأسراري

ولم أحدس

بأن "القرش" سوف يلومني يوماً

ولم أحدس بأن غزالة زرقاء

سوف تلومني أبداً

ولم أحدس بأن أبي الفقير

يغتاله

ملك يهودي صغير!

لا بأس

لي عين على كفي

ولي أنف على رئتي

ولي شمس بلا نور ولا نار

ولي أفق يطل على الضمير

وراءه أفق يطل..

ولا ضمير..

مسكونة بالحزن والحمى

أزقة قريتي اكتظت

برعب فاجع

تروي العجائز

أن أفعى من بلاد الهند

تسكن منزلاً في الحارة التحتا

وأن خراف إبراهيم

تثغو بعد نصف الليل في الطرقات

لم نخرج إلى الحارات

بعد غروب شمس الله

لم نشهد ليالي العشر في الخلوات

لم نعبر بباب كنيسة البلد العتيقة

إن جبرائيل يظهر في المساء على نوافذها

ويحكى أن .. يحكى ..

وغبار نعل محمد

– تروي العجائز–

صار تلا عند عكا

وأنا أموت من اليقين

أموت

ثم أموت شكا!

لا بد أن نمضي

اشتعلنا كالإطارات القديمة

في مداخل قرية

للمرة العشرين داهمها الغزاة

لابد من إكليل ورد طازج

خرج الربيع إلى الشوارع

غاضباً

أحبابنا الشهداء في القبور الجماعية

استردوا موقعاً في الأرض

والتفتوا إلى ضوء الحياة

وتهدجت صيحاتهم

طوبى لهم

طوبى

ونوغل في السبات

من أنت؟

من هذا الذي هو أنت؟

من نحن؟

انتظرني يا مسيحي المنتظر

لم يبق لي أحد سواك

وليس لي أحد سواي

تعال

إن عناقنا الدموي فاتحة الحقيقة

وتعال

نبتدئ الخليقة

يا أيها البدوي

لا تنظر وراءك

لا نخيل ولا صهيل ولا وتر

قيس وليلى عاريان على ضفاف "السين"

"إل. إس. دي" نديمهما

وحزن "البنك"

والشجن المكابر والضجر قمر؟

أتسأل عن قمر؟

أو. كي.. "عربسات" القمر!

رابط

ولا تنظر وراءك

إن معقلنا الأخير هنا..

ومعقلنا هنا،

يمتد من قبري لقبرك

رابط

على أنقاض سرك

أجل صلاتك للإله المعدني

ألا ترى الخلل المعشش في المحرك؟

فجأة تخبو الصلاة المعدنية

يصمت التوربين

ياه!

زمن يزل الأنبياء على مزالقه

ويسقط في مكائده إله

ثم يسقط عن معابده إله

ويسير فيه المؤمنون على الجباه

زمن.. وآه!

فوضى

وطقس لا يعد دروسه سلفاً

وما أقسى الربيع بلا فراش

تلك واحدة ترف

على ركام الحاجز المقصوف جواً

تلك واحدة تطل برأسها من جمجمة

خلل يعشش في الأماني

خلل يشرش في الأغاني

خلل

دروب مبهمة

خلل

قلوب معتمة

خلل

دخان في الدخان..

لن يسمع القناص أغنيتي

ولن يرضى بغير فمي ملاذاً للرصاصة

هوذا هناك

وراء نافذة محطمة

يسدد حزنه الوحشي صوب ضراعتي

يمتد في منظاره شرهاً

ويوغل في جراح ضحية أخرى

أراه هناك مصعوقاً

يحاول أن يصادف في دم القتلى خلاصه

وأراه

يعرفني ويجهلني

ويعرفني ويقتلني

ويأخذ جثتين معه رهينة

فلعلهم يهبونه كفني

ولحم حبيبتي

ويدي

ومفتاح المدينة

أنذا أراه.

ولا ضغينة..

سبحان موتي وانبعاثي

في زغاريد الولادة

في الأناشيد المراثي

سبحان برقوقي المفتح عارياً

ملء البراري

سبحان عصفوري المغرد

في حطام مجنزرة

سبحان جثة طفلة

ذهبت تفتش عن أبيها

بين أطلال النهار

سبحان مجزرة تخبيء وجهها في مجزرة

سبحان قمصاني التي اهترأت

ونيراني التي انطفأت

وأوطاني التي لجأت

وإنساني الذي انكفأت

على عينيه

أجيال التمزق والدمار

يا أيها الأحياء والموتى

أبوح ولا أبوح

ودمي يجلجل في شراييني

وتشتعل القروح

ويظل لي جسد

إذا جسد مضى

ويظل روح..

باب المغارة موصد دوني

سقوط نيازكي في ساحة الأقصى المبارك

كلمة السر الأخيرة

دولتي شغفي بسنبلة تميس على انبهار الفجر

أعلامي السنونوات

خفق الريح في الزيتون والسريس

كان نشيدي القومي من أزل

إلى أبد يظل نشيدي القومي

آبائي البيادر

والمعاصر

والقناطر

وسلالتي

وله العناصر بالعناصر

وسلالتي

حلم يعد دروسه

حلو وشاطر..

وأعود أمس من العواصف

وتعود أنت من القذائف

ويعود عفو الله والإنسان

من غضب الزلازل

وتعود أيدينا المقطعة

الموزعة

الملوعة

البعيدة

تبني المدارس والمقاهي والمنازل

تبني مدينتنا الجديدة..

صور ملونة

كلام طيب

خط جميل

صحف

إذاعات

سفارات

وزارات

قتيل

آخذ بيدي قتيل

دول

عواصم

قناصة عمي

مطارات

قطارات

عباءات

ملاءات

زعامات

مقامات

جماجم

عرب

يهود

قوة دولية

روم

أعاجم

ولج المهاجم في المدافع

والمدافع في المهاجم

ولد يحاصر أمه

أم تغير على الولد

بلد يهاجر في بلد

وعلي أن أمضي

وأن تمضي

ونوغل في الأبد..

حجراً على حجر وينهض منزل

بين الركام، وينهض المستقبل

وتعود من لأي الأسفار حبيبتي

ويعيد نضرتنا الزمان الأول

هي تلك في أرض الردى تفاحة

نضجت وسنبلة تحن ومنجل

وعلى التراقي زعتر وحقائب

والباب يشهق والسياج يهلل

العشب رهو والسبيل ممهد

والشوق يسرع والمدي يتمهل

هي تلك بنت شرعت شباكها

ملء الوجود وشاعر يتغزل

هي تلك دنيا ودعت أمواتها

واستقبلت أحياءها واستقبلوا

عفواً وهاد الموت! أنت جميلة

لكن أمتنا الولادة أجمل!

لابد أن تمضي

لكي أمضي

وأن أمضي

لكي نمضي

تعال إلي

أغنية مفخخة

وصاعقة رشيقة

وتعال

إن عناقنا الدموي

فاتحة الحقيقة

وتعال

نبتديء الخليقة!

١٩٨٥/٥/٢

الرامة – حيفا – برشلونة

فسيفساء على قبة الصخرة

– ما اسمك يا عروس؟

– نسيتني؟

"يبوس"!

ليل على القباب

مئذنة سادرة في الدهر

وامرأة بالباب

مرتابة بسائح يمر

وعسكر أغراب

رابية للموت والحياة

أدعوك

أم عمامة لله؟

الولد الحافي

يطالب التاريخ بالحذاء

ويملأ الأسواق بالنداء

أنا أبيع البلسم الشافي

للعقم والصلعة والسوداء..

أنا هنا تنفس

يا حجري المقدس!

يا السور يا الأبراج

لا بأس يا أسرارنا الحميمة

كم فاتح حاول أن يزحزح الرتاج

ليستبيح روحنا القديمة

وعاد بالهزيمة

أبصر فيك الفاتحة

غدي يصير البارحة..

لا تحرمين نعمة الصلاة

يا نقمة الوضوء

لا ماء للموجوء

لا ماء باسم الله!

دمي علي الربابة

من ينشد الرسول والصحابة؟

قلبي عليك

آه ثم آه

وقلبك الميت

تحت أرجل الغزاة!

جوهرة الناووس

تضئ في الليل

صلي لنا

صلي

يا ربة الطقوس

الخاتم الذهب

في إصبع العرب

من قطع الإصبع؟

سبحان من وهب

– ويل لمن ضيَّع!

الطفلة الحافية البيضاء

تركض فوق الماء..

تختلف العيون

تختلف النظرة في العيون

يا جبل الزيتون

أيتها القناطر

لا تسدلي الستارة

عدت من المهاجر

عدت من الذاكرة المنهارة

بكل ما في الروح من شعائر

صه صه

هذا صهيل الخيل

يهز قلب الليل

غفار يا غفار

لا تقطعي الطريق

لست سوى صديق

يستنبت القفار

زجرت

ما ازدجر

يا سيدي عمر

الفارس المسلم يستريح

تحضنه زيتونة

والسيد المسيح

يطل من أيقونة..

رأيت مسمار جحا

مفقوده موجود

رأيت مسمار جحا

موجوده مفقود

رأيت مسمار جحا

في حارة اليهود..

لا تطرح السلام

اصغ.. ألا تسمع

تنفس الأسوار

اصغ قليلاً أيها الغلام

ثم اطرح السلام

وبعدها تلوذ، كيف شئت، بالفرار

آه عليك آه

اقرأ ولا تقرأ

هذا الكتاب الله

والشمس في الملجأ..

القرمطي في

يا فقراء الأرض

صلوا علي النبي

هذا زمان الرفض!

سلالم الأشواق

تصعد عبر الغيم

با فارس البراق

جيادنا مسرجة بالضيم!

جئت من الكوفة

كي أكتب الآية

الشمس مكسوفة

من مبلغي الغاية؟

صلوا على القتيل

وطمئنوا ذويه

جئت لأفتديه

من موته الثقيل

جيوشي الزيتون والنخيل.

أنا سليل اللات

أبي الإله بعل

عمدت في النيل وفي الأردن والفرات

أنا سليل اللات

أمشي، وخلفي الشمس

إلى رحاب القدس

أمشي.. وظلي الليل!!

الهولة

من هنا كان ولوجي

وهنا كان خروجي

الكناري الذي رف على نخلة أحزاني

احترق

قلت لا بأس

سأمشي عارياً من سقسقات الفجر

مخموراً بإيقاع خطاي

قلت لا بأس

جناحاي .. يداي

وسمائي بيد أجدادي

ولا بأس

جوادي من ورق

إيه لا بأس

وسيفي من ورق

قلت أمشي

رب شيخ يرشد المدلج عند المفترق

رب نار

رب ناي

في وهاد الرحلة الأخرى

أرى الهولة

لن تخدعني عيناي

لا.. إني أراها

هولة المتفرق الغامض:

نابان على صدغي حمار الوحش

سكين من الفضة بين الأنف والجبهة

عينان على الخف

فم في زعنفة

وأراها،

هولة المفترق الواضح

بين الجثث الملقاة فوق الأرصفة

وجليد الصوت خلف الشفة المرتجفة

وأراها وتراني

إنها ترقص من حولي تناجيني

وتغويني بسحر الشجن الآفل

ما بين المراثي والأغاني

إنها تأخذني زوجاً!

وداعاً

يا ولادات زماني ومكاني..

قصيدة التوبة

وها أنذا بعد موت كثير

أعود إليك قليلا

ثقيل الخطي عاقلا مستحيلا

أعود بلا أسف (تذكرين، رحلت لا أسف)

الدخان الذي كنت

يلتف شالاً على كتف الله

حبلا على عنق لص صغير

ويلتف هالة نور على القلب

سرا يؤرث في الروح ناراً

ويطلق غزلانه في براري الكابة

ها أنذا بعد موت أعود

على جبهتي وصمتي

والمشيب الذي خط الصدغ كفارتي

بعد موت طويل أعود

لماذا؟ لمن؟ كيف؟ لا تسأليني

ولا تقتليني

أعود.

وحيداً كما كنت

حيا كما مت

حراً كئيباً

شقيًا سعيدًا

أعود إليك

لأبكي بين يديك

وأصمت بين يديك

وأرحل ثانية في فضائي القريب البعيد.

سأعترف الآن.

لم يبق مني سوى نخلتي المائلة

ولم يبق مني سوى هذه البذلة الحائلة

وأعترف الآن،

لم يبق منك سوى وردة يبست في كتاب قديم

وأغنية ذابلة

أحبك؟

لا تسأليني

ولا تقتليني

أنا الحب! لا أعرف الحب

لا علم لي بكنوز بحاري

ولا بثماري

مكثت طويلاً على الأرض

أعترف الآن

لم ألمس الأرض

لم ألمس الأرض

أدمنت خمر التشرد
عاشرت تركية في البرازيل
جامعت صربية في فرنسا
عشقت على شاطيء الكنج روسية
وعلى قمم الألب ضاجعت هندية
وانكفأت إليك
لأقرأ مستقبلي في كتابي القديم
وما من كتاب سوى راحتيك..
هدوء رزين على المائدة
وكأسان مضطربان
ونحن قريبان جداً
بعيدان جداً
ولا شيء منا
ولا شيء فينا
ولا شيء غير زهور من الظل

بين أصابعنا الباردة

خواء يضيء خواء

ويظلم قلبان في آخر الصيف

قبرتان تموتان من حسرة

إن كف الإله التي نثرت قمحها للجياع

وأغدقت الورد

كف الإله التي ذكرت

نسيت أننا بعض هذي الخلائق

من أين جئت؟

وهل كنت

هل كنت؟!

ولا تقتليني

لا تسأليني

خواء يضيء

وتظلم في الفجر عاصمة

تستدير الجماهير ساخطة

فجأة تهدأ الماكنات

وتجمد في الطرق العجلات

كسوف ثقيل يحط على شرفات المنازل

عاصفة في الجحيم

صدوع على ناطحات السحاب

انهيار يطيح بمبنى الإذاعة

تسقط من شاشة التليفزيون

مطربة تتأوه في لوعة

طقم أسنانها الذهبي

يحط كطائرة الهيليكوبتر في الكأس

كيف تُرى أشرب الآن؟

لن أقرب الكأس

لا تشربي!

تلك رأسي في كأسك

انتبهي

إننا ميتان

وما من مكان لنا

غير هذا المكان..

وداعاً

وداعاً

ومن بعد موت كثير أعود إليك قليلا

ثقيل الخطى، عاقلا، مستحيلا..

النبوءة الأخيرة

تجتاز باباً سابعاً

لتموت في فرح وصمت

وأنا أكون هناك

مبتهجاً رسولياً بموتي

ويكون أطفالي

وزوجة غربتي

وظلام بيتي

وقصيدتان شقيتان

وفرحتان بدون صوت

نجتاز باباً سابعاً

ونعود

شريرين قديسين

من نار وزيت

لك أن تقول الروح وحدك

لم أقل غير الجسد

وحدي

وكل الراسفين العابرين بلا عدد

لك أن تقول

فلا أحد

يصغي هناك

ولا أحد

يصغي هنا

ما من أحد

يصغي

تكلم كيف شئت

من الوريد إلى الوريد

من يديك إلى يديَّ

ومن يديّ إلى الأبد

لجبيننا نار الجنون

وحكمة الموتى لنا

ولجيدنا.. حبل المسد!

نجتاز باباً سابعاً

ونعيش موتا رائعاً

ونموت قديسين شريرين

فاكهة محرمة

ونبعث مضغتين صغيرتين

هنا الرمال هنيهة

وهنا دهر من زبد..

السيد من؟

يتقمص قنبلة يدوية

ينفجر عميقاً وبعيداً

ينفجر لكل شظية

اسم من أسماء البشر الحسنى

اسم من أسماء الشهداء

قنبلة – روح

لا يخرج في الأموات

ولا يدخل في الأحياء

روح

ينبح مجنوناً في المقبرة الليلية

يتعثر ما بين العتمة والضوء

ويسقط في الريح

روح

ينبح

يصطك على شاهدة مائلة

ويسح ثقيلاً

تحت ثياب العرس وأكفان الموتى والنشرات الجوية

تتساءل عنه أكاليل الورد الذابل

وهياكل

أهلي العظمية

ويئن غلام وصبية:

"السيد من؟"

"هذا السيد من؟"

ويغمغم ذكر البوم لأنثاه"

رجل نائم في الفضاء

يسقط الشعر من رأسه

خصلة خصلة

يسقط الشعر عن حاجبيه

شعرة شعرة

يسقط الشعر من شاربيه

رجل نائم في أغاني الهوى والشباب

وليالي العذاب

رجل مثقل بالسراب

يسقط الشعر من لحيته

نائم

يسقط الدمع والدم من بؤبؤيه

رجل

في فراش الخواء

نائم

يسقط اللحم من جثته

رجل

مومياء..

وتقول الجنية:

يضحك في سره ويموت ويبعث

معتدل الطول ثقيل الأهداب

رجل في منتصف العمر

وسيم حين يغني

وقبيح حين يوزع صور القتلى

لوكالات الأنباء وللصحف اليومية

رجل– أفعى

جرذ – رجل

يتكاثر في الأنقاض

ويمتد ويلتف نباتاً شيطانياً

حول الكرة الأرضية

يبكي في شره

ويميل إلى السمنة

ما بين بطين القلب الأيسر

والنعل اليمنى

تسأل عنه وتجيب امرأة حبلي:

"هذا السيد من؟"

والسيد من؟

ربطة عنق حائلة اللون

يجذبها عشاق القمم الشاهقة

ويجذبها الغرقى في برك الدم

وهواة كراسي الحكم

أحياناً، ينبلج جبين السيد من؟

عن رف سنونو

أحياناً تندف شفتاه الدفلى

أحياناً تقذف رئتاه الوحلا

ويوزع صور القتلى

والسيد من؟

شخص مجهول

لا يعرف أحد من أهل الأرض متى جاء

وكيف، ومن أين!

يتكلم لغة لا يفهمها أحد

ويحب الأطفال

ويقال

السيد من؟

يحيا ليلاً ويموت نهاراً، ويقال..

السيد من؟

نبض الصحراء وهمهمة الأدغال

ذاكرة أخرى للريح الشرقية

زغرودة عرس

مرثية

والسيد من؟

ظاهرة جيولوجية

يتنفس ويغني في لغة لا يفهمها أحد

ويئن على باب الله:

تنتابني المدن التي سقطت وتقرع باب بيتي جثة أخرى.

أقوم مهرولا. بر وليل باهظ القدمين. تبكي الريح خلف الباب.

أصرخ: من هناك؟.. ولا أحد.

سأنام والأموات في الطرقات

ينتحبون من خزي ومن جوع. وكيف أنام والأكفان غيم ماطر شرب البلد؟

حسناً سأخرج للشوارع عارياً. وأصيح بالموتى السكارى القادمين من المخيم خلسة. وأصيح رب هنيهة تصغي إلي من الأبد.

تنتابني المدن التي شيدتها ثملاً بأحزاني. أدندن في الميادين الفسيحة بالطقاطيق القديمة مشرعاً طربوش "عبد الحي" للحسنات.

أعمى مغرباً قاده الثأر القديم إلى رصيف عامر بالقصف والجثث الجديدة، هل هنا بيروت، لا أم يكفنها ولد، بيروت أم عمان لا يدري القتيل، لعلها الشام القديمة، ربما بغداد أو مراكش. اختلطت علي خرائطي اختلطت فلا يافا تلوح ولا صفد!

ويصيح بي قلبي: انتظرني أيها المسكون بالترحال!

أزجره وأمضي

أجتاز قناصاً إلى لغم

ويفضي بي إلى ما ليس يفضي

وألم أطرافي على عجل. طريق الموت سالمة. قبيل الليل ميعادي هناك حبيبتي اغتصبت أمام شقيقها. وهناك أزهار من البارود أقطفها بلا إذن وأركض في حديقة منزل هجرته أسرته حديثاً (إن أعمال التجارة في البرازيل اختيار جيد والقنص في صحراء أستراليا مباح. تلك فرصتنا الجديدة، لا حسود ولا حسد)

عين الصواب وعين قناص. سأختار النكوص إلي. إن كروم أهل الكهف سائبة تكاد تجف من دنف ومن لهف على وعد ووعد وأكاد من عطش أموت. فما علي إذا قطفت من العناقيد الأخيرة قطرتين لرحلتين: من السقوط إلى السقوط ومن نهايات الخيال إلى نهايات الجسد

الآن

أهبط

فرسخين

إلى

العدم

وأدق أوتادي. وأنصب خيمتي البيضاء بين الرعد والكدمات في زنزانة التعذيب. أمضي عطلة الويك إند في متنزهي السري. خلف البنك والثكنات والصحف المثيرة والممالك والأمم.

والآن أصعد فرسخين من العدم

لأطل

رب صبية سلمت ورب فتى. أحاول أن أزاوج بين مرثاة وأغنية وبين دم ودم ولعل زوجاً لم يزل من كل جنس يفتدي الآتي من الماضي لعل مدينة سقطت تثوب لرشدها في كوخ صياد وقبلة..

ولعل في جسد القتيل لهذه الصحراء نخلة..

والسيد من؟

شبح حملته من الدنيا وإليها طائرة

شبح سمعوه يغني:

أقلعت طائرة الروح عمودياً

لضيق الأرض

لم يبق مطار شاغر في العالم السفلي

لا مرشد

لا حارس

لا ضوء

ولا طيار

لا شيء سوى هذا المسافر

أقلعت طائرة الروح

إلى أين؟ ومن أين؟

تكلم أيها الموت المغامر!

سقطت طائرة الروح

هنا البرق

وفي منعطف الليل سحابة

سقطت. في أي بحر؟ وعلى أية غابة؟

فرق الإنقاذ لم تعثر على علبتها السوداء

لم تفلح مساعي لجنة التحقيق في الحادث

سر غامض

إضبارة غامقة أخرى

ملف مغلق

خطبة تأبين

وأزهار كآبة.

سقطت عن أمها تفاحة

يا مستر نيوتن.

سر الجاذبية

كامن بين عصيري وقشوري

وسقوط البشرية

واضح ما بين جلدي وضميري

واضح بي، غامض في لجنة التحقيق

قلبي علبتي السوداء

هل في فرق الإنقاذ من يسمع صوتي

مقلعاً من هذه الأرض

عمودياً

وحيداً في الفضاء الشاسع الممتد

من موت لموت؟

ويقال:

السيد من؟

توأم سيدنا آدم

طارده رؤساء الإنس

وأهدر دمه ملوك الجن

والسيد من؟

توأم سيدنا آدم

مطلوب للشرطة

في كل مخافر هذا العالم

مطلوب

حيًا أو ميتاً

مطلوب

حيا أو ميتاً

والسيد من؟

مطلوب حياً أو ميتاً

السيد من؟

عمامة للملوك
طربوش للأغا
وقدَّاس لبيروت

لا خبز غير وداعة الأموات

فليكن الإدام

وشلاً على الأحداق خلف الدمعة المتحجرة

ولك المجاعة والسلام

يا أسرتي المغلوبة المغلولة المتكبرة

القمح. هذا العام. منذور لحرب جلالة السلطان

حسب المؤمنين رضا جلالته ووعد بالذرة

ولجنده لبن القطيع ولحمه

ولخيله ذهب الخلايا الخيرة

والحمد لله الذي وهب المنازل قنطرة

برد الشتاء يطول

والأعمار تقصر

والمصائر مضمرة

لابد من حرب وقد شاخت نساء جلالة السلطان

واقتضت السبايا مجزرة..

من أين نبدأ سيدي الملموك؟

نبدأ من مجال السيف

في أعناق من كفروا بنعمتنا

ومن نكثوا ببيعتنا

ومن خرجوا على فرمان طاعتنا

ونبدأ

باقتلاع خواتم السلطان من يده القتيلة

وبحز أعناق الحريم

عن الجواهر واللآليء

كي تباركها عمامتنا الجليلة..

من أين نبدأ.. سيدي الآغا؟

سنبدأ من دم المملوك

نبدأ من بدايات المجون

ومن نهايات الجنون

ومستحيل المغفرة

لنعيد للطربوش حمرته

وللقطان خضرته

وللسلطان هيبته وجزيته

وللقتلى.. رخام المقبرة..

من أين نبدأ سادتي الشهداء والجرحى؟

سنبدأ من عذاب مشوهي الحرب الصغار.

ومن الضحايا والسبايا

تحت رايات الهلاك

وبين أسماء الدمار

من أين نبدأ ما انتهينا؟

البدء

بسم الله

قداس لبيروت التي انبلجت على خيل العرب

نجدية حسناء

هابطة إلى كنعان

صاعدة إلى لبنان

فاتحة بلا سيف ولا رمح

مدججة بأصداف تهلل للخشب

بيروت ذاهبة على سفن من الصحراء

بيرقها ألفباء المشارق والمغارب

صوتها هزج الزجاج على صرور الغيد

موغلة إلى جزر الذهب

بيروت.. بنت روضت خيل الرياح الهوج

وانخطفت بعاصفة اللهب

بيروت سيدة الغوى

بيروت كاهنة الغضب

ظمئت

فمنذا يتشري دمها المعتق في السراب

بكوز ماء

ظمئت

لسهرتها وسكرتها وميستها على زند الطرب

والكأس قاحلة

وما في الكرمِ شوق لعنب

بيروت

يا سبحان من يهب الهبات كما يشاء

ويسترد متى يشاء

ويستبد بما وهب

(بيروت مرهقة من الترحال في أعماقها

والنزف في آفاقها

بيروت أدركت الرضا الأغلى

وأدركها التعب

كتبت حروف الله والإنسان

واجترحت قيامتها

بحرف مقتضب)

لشقائق النعمان أن ترتاح

في أفياء أرز الله

للدوري أن يأوي لعش

آمن من شهوة الأفعى

وأن يشتاق قرميد الليالي المقمرة

ولقلب عشتاروت أن يرتاح

من ضوضاء طائرة تدمر وردة

وقذيفة تلقي غبار الطلع

فوق مجنزرة

(ذاب الجراجمة القدامى في ثلوج العسف

وانزلقوا وراء الشمس

عن عصيان صنين العنيد

ذابوا وعادوا من جديد

في صورة الثلج القديم

ومحنة الثلج القديم

ولعنة الدم للوريد

ذابوا.. وعادوا من جديد..)

يا أيها الموتى

أشاطركم حياتي الباقية

فاستسلموا للحب!

وانتزعوا أمام البحر والصحراء

أقنعة الوجوه القاسية

يا أيها الموتى الأحبة

كيف أرشدكم إلى نبعي

وكيف أزيح عن أفواهكم

غضب الكؤوس الدامية؟
لا تجرحوا ظل الصنوبر
لا تفرحوا بجنود قيصر
يا أيها الموتى الأحبة
وادخلوا بيتي الحرام
ومالحوا أهلي الكرام
وصالحوا لغة البدايات الأصيلة..
لحبيبتي بيروت قداس
ونذر للشهادة والسلام
ووردة حمراء من وجعي
على وجع الجديلة..
(باب على الصحراء مفتوح
لأبواب على الأشلاء موصدة
لأبواب تصد البحر
غرباً تلو غرب تلو غرب

ما زال للصحراء قلب

ويظل يخفق من لواعجها

ويشرق في هوادجها

ويبرق بيرقاً وقصيدة وجنون شعب

بيروت فانتفضي

وقومي من رمادك يا ابنة العنقاء

يا شرف الأوائل

بيروت

يا عار الطوائف والحمائل

والعشائر والقبائل

بيروت

يا حلماً وحيداً

حوله مليون قاتل؟

بيروت

قومي من رمادك يا ابنة العنقاء

عشتاروت

يا بيروت

يا بنتاً مدللة

تصيح بحزنها الدموي

أرملة تصيح:

(أنا. أنا جمل المحامل

وأنا. أنا جمل المحامل !!

بيروت

يا نوراً تحن إلى سفائنه

منارات السواحل!!

أدخنة كاتم الصوت

(١)

وردتان على شاهده

لك واحدة

وله واحدة

أنتما الآن في غفلة

عن بكاء الأسير

فانعما كيفما شئتما

في فراش التراب الوثير

واتركاه اتركاه

يقول النشيد الأخير

فوق جثته الخامدة

(٢)

يا قناديل دمي المنطفئة

لم تزل لي

لم تزل لي في الذبالات امرأة

لم تزل لي

شهواتي المرجأة .

(٣)

فرص من بخار الحساء

صهلت فوق مائدة الرجل

الميت

وانطلقت نجمة في السماء

(٤)

وسواء

قصر الحسبان أو طال

الحساب

هذه الوردة

من هذا التراب

(٥)

غادرتني يدي

هكذا

دونما مهلة للوداع

غادرتني إلى بلدي

في بقاع وراء البقاع

(٦)

على شهقة الناي

في بيد قيس وليلى

على شهقة الناي

في سفح "حيدر"

ما بين موتي وطلع الشجر

يسيل دمي

ويسيل دمي

ويسيل القمر

على شهقة الناي

بين القضاء وبين القدر ..

(٧)

رجل من صفيح

علي مقعد من صفيح

يمد يدا للطعام

رجل جائع من سنين

ضائع في الرنين

صديء مهمل في الركام

(٨)

أتهاوى على مقعدي

مفلتا للفراغ ذراعي

يهتز بي المقعد الخشبي

إلى النوبة القادمة ..

أتهاوى

على الخاتمة ..

(٩)

ومثلما تنكسر البيضة

فوق حافة المقلى

ستكسرين

أيتها الأرض

على لسان هذا القلم اللعين

لأن لي جوهرة

ووردة في الحمأ المسنون..

(١٠)

أعلم أنها

دست لي السم

وشجعتني

كي أشرب الكأس إلى

الثمالة

أعلم أنها

دست لي السم

وقبلتني

حتى أموت هادئا

فوق رصيف القطط الضالة

والكلاب

والزبالة..

(١١)

أيها الناس الذين استدرجوا

من آخر الأرض

لماذا تقذفون

ضجة المرساة في هذا

السكون؟

أيها الناس الذين ابتهجوا

في مأتمي

من بعد دفني

تندمون..

وعلى هيكلي العظمي

فجراً.. تدفنون

(١٢)

الخيول التي تصهل الآن

في الساحة الدامية

جثث باقية..

والخيول التي تصهل الآن

في الجثث الباقية

جولة ثانية ..

(١٣)

قيل لامرأة تتعرى جزافاً

– متي تولدين؟

قالت:

– انتظروا،

جسدي فكرة للجنين..

(١٤)

وفي آخر الليل

يهبط بي الدرج اللولبي

إلى البهو

لا أشعل الضوء

تكفي الشموع المضيئة في

لوحة الزيت

تكفي العيون المشعة فوق

الجدار..

وفي آخر الليل لا يقبل العطر

من وردة في الحديقة

أعرف أزهار رسامة من

"منغوا"

التقيت بها في القطار

المسائي باريس – روما

وأولدتها لوحة لهدوء الأقاليم

خلف ضجيج القطار

وفي آخر الليل

ترجع للقلب غربانه

وينام النهار..

(١٥)

صافحتني

وحين مضت

رافقتها ذراعي

ضاعتا في الضياع..

(١٦)

شاعر قوس قزح

يركض الأولاد حتى يلمسوه

يختفي

كي يذكروه

في مواعيد الفرح

(١٧)

كونوا على حذر

كونوا على حذر

الوردة النحاس

لا تستعجل المطر

(١٨)

وبعد.. أو قبل

يحبني الليل

خرافة

ينام في فراشها طفل..

(١٩)

وفي عمودي الفقري

امرأة تسعى

قصيدة

أفعى

(٢٠)

أقرأ الجثث الطافية

فوق آبار نفطي البعيدة

تقرأني البادية

نطفة آتية

من فقاعات روحي

على سطح مقبرتي النائية..

(٢١)

راحتي مصحف

غادرته السور

رد لي مصحفي

رد لي سوري

رد لي راحتي

أيهذا الحجر..

(٢٢)

لم أمت بعد

ها أنذا لم أزل

جثتي فيلقي

حارسا خندقي

بين أهلي الطغاة ثمود

وطغاة اليهود

لم أمت

ذاهب

كي أعود..

أطفال ١٩٤٨

كوم من السمك المقدد في الأزقة.. في الزوايا
تلهو بما ترك التتار الإنجليز من البقايا
أنبوبة.. وحطام طائرة.. وناقلة هشيمة
ومدافع محروقة .. وثياب جندي قديمة
وقنابل مشلولة.. وقنابل صارت شظايا
"يا إخوتي السمر العراة.. ويا روايتي الأليمة
غنوا طويلا وارقصوا بين الكوارث والخطايا"
لم يقرأوا عن دون كيشوت وعن خرافات القتال
ويجندون كتائباً تفني كتائبا في الخيال
فرسانها في الجوع تزحف.. والعصي لها بنادق
وتشد للجبناء، في أغصان ليمون، مشانق
والشاربون من الدماء لهم وسامات الرجال

يا إخوتي!

آباؤنا لم يغرسوا غير الأساطير السقيمة

واليتم.. والرؤيا العقيمة

فلنجن من غرس الجهالة والخيانة والجريمة

فلنجن من خبز التمزق. نكبة الجوع العضال

يا إخوتي السمر الجياع الحالمين ببعض راية

يا إخوتي المتشردين ويا قصيدتي الشقية

ما زال عند الطيبين، من الرثاء لنا بقية

ما زال في تاريخنا سطر.. لخاتمة الرواية!

صوت الجنة الضائعة

صوتها كان عجيبا

كان مسحورا قويا

وغنيا

كان قداسا شجيا

نغماً أفلته الفردوس في آفاقنا

لفنا وانساب في أعماقنا

فاستفاقت جذوة من حزننا الخامد

من أشواقنا وكما أقبل فجأة

صوتها العذب تلاشى وتلاشى

مسلماً للريح دفأه

تاركاً فينا حنيناً وارتعاشا

صوتها.. طفل أتى أسرتنا حلواً حبيبا

ومضى سراً غريبا

صوتها.. ما كان لحناً وغناء!

كان شمساً وسهوباً ممرعة

كان ليلاً ونجوما

ورياحاً وطيوراً وغيوما

صوتها.. كان فصولاً أربعة

لم يكن لحناً جميلاً وغناء

كان دنيا وسماء

واستفقنا ذات فجر

وانتظرنا الطائر المحبوب واللحن الرخيم

وترقبنا طويلاً دون جدوى

طائر الفردوس قد مد إلى الغيب جناحا

والنشيد الساحر المسحور.. راحا

صار لوعة

صار ذكرى.. صار نجوى

وصداه حسرة حرى.. ودمعة

نحن من بعدك شوق ليس يهدأ

وعيون سهد ترنو وتندى

ونداء يحرق الأفق ابتهالات ووجدا

عد لنا يا طيرنا المحبوب فالآفاق غضبى مدلهمة

عد لنا سكراً وسلواناً ورحمة

عد لنا وجهاً وصوتا

لا تقل: آتي غداً

إنا غداً.. أشباح موتى!!

من المدينة

هــذه نبرتــي.. وهــذي ذراعــي وثيــابي.. وأحرفــي.. ومتــاعي
هــذه خطــوتي كمــا حفظتهــا درب بيتــي ورددتهــا المراعــي
وأغــان لــم تــزل مثلمــا كانــت تــدوي فــي كرمنــا الملتــاع
لا زحــام المدينــة امــتص شــكلي وشــعوري.. ولا ليــالي الضــياع
زئبــق وجهــي الحــزين وقلبــي زئبــق فــي دوامــة الأوجــاع
تتلقــاني المقــاهي غريبــا وغريبــا أنســل خلــف صــداعي
وغريــب عنــي فراشــي.. غريــب وغريــب عنــي صــدى المــذياع
وطعــامي وقهــوتي ودروبــي أي دليــل.. وأي جــب أفــاع!
عبثــاً تحفــر الريــاح جبينــي عبثــاً يــنهش اللهيــب نخــاعي
هــذه نبرتــي. وهــذي ذراعــي وثيــابي.. وأحرفــي.. ومتــاعي
أنــا بــاق.. بــاق أنــا حيــث أمضــي لــم أبــدل ملامحــي بقنــاع!

لـن

واحداً تلو واحد..

يسقط الميتون تباعا

فاحرسي يا بلادي الشراعا

عائد فارس الريح عائد!

قطرة تلو قطرة..

يمطر الدمع فوق الصحاري

فابشري باخضرار

يا سهوب الرؤى المكفهرة

كان أمساً مقيتا

داسنا باحتقار وولى

وغداً.. لن نبيتا

مزقاً تذرع الأرض وهناً وذلا

قسماً.. جذرنا لن يموتا!

قسماً.. دمنا لن يطلا!!

هكذا

مثلما تغرس في الصحراء نخلة

مثلما تطبع أمي في جبيني الجهم قبلة

مثلما يلقي أبي عنه العباءة

ويهجي لأخي درس القراءة

مثلما تطرح عنها خوذ الحرب كتيبة

مثلما تنهض ساق القمح في الأرض الجديبة

مثلما تبسم للعاشق نجمة

مثلما تمسح وجه العامل المجهد نسمة

مثلما يشمخ بين الغيم مصنع

مثلما ينشد بعض الصحب مطلعا

مثلما يبسم في ود غريب لغريب

مثلما يرجع عصفور إلى العش الحبيب

مثلما يحمل تلميذ حقيبة

مثلما تعرف صحراء خصوبة

هكذا تنبض في قلبي العروبة!

الطفل الذي ضحك لأمه المقتولة

حبا في ساحة الدار..

وكركر حين فاجأها

جوار السور مطروحة!

وفاجأ بضع أزهار،

مبعثرة على صدر

جميع عراه مفتوحة

تصيح: "تعال يا ولدي..

تعال ارضع!"

فخف لها على أربع

وغرد ثغره:

"اما!"

وكركر، حين لم تسمع..

وشد رداءها،

ورؤاه، دغدغة وأرجوحة

وردد عاتباً: أمــا!"

ولم تسمع!

وظلت في جوار السور مطروحة

وظلت بضع أزهار

تنز دماً

على صدر جميع عراه مفتوحة

تصيح: "تعال يا ولدي"

الموت يشتهيني فتياً

تعبر الريح جبيني

والقطار

يعبر الدار، فينهار جدار

بعده يهوي جدار

وجدار بعده يهوي

وينهار جدار!

تعبر الريح جبيني

ويميد البيت بالضجة..

آه – أنقذيني!

إني أسقط يا أمي!

تعالي.. انقذيني!

إنني أغرق في قاع المحيط

وكلاب البحر من حولي

ومن حولي يدور الأخطبوط

وأنا أعلم أن الموت

يا أمي

فتياً يشتهيني!

فتعالي.. واشتريني..

انقذيني،

أنقذي..!

زنابق لمزهرية فيروز

– من أين يا صديقة

حملت المزهرية

والنظرة الشقية؟

= من القدس العتيقة!

– ومن ترى رأيت

في عتمة القناطر

من شعبنا المهاجر

وما ترى سمعت؟

= رأيت بنت عمك!

في طاقة حزينة

تبوح للمدينة

بهمها وهمك!

رأيت في الشوارع

ليلا من العيون

وإخوة يبكون

وألف طفل ضائع!

رأيت سائحين

وبائعاً يصيح:

من يشتري المسيح

بحفنتي طحين؟

رأيت في المداخن

عصفورة جريحة

وطفلة كسيحة

تبكي على المآذن!

ومرة.. سمعت

مغنياً مهاجر

يصيح.. يا ضمائر

أضعت يوم ضعت؟

هناك يا ابن عمي

حملت المزهرية

والنظرة الشقية

وقصة عن أمي

عن أمي الضحية

– لدي يا صديقة

زنابق حمراء

ألوانها دماء

من القدس العتيقة!

١) زنبقة حزينة

من دم بنت عمي

وجدتها مذبوحة

في طاقة مفتوحة

تصيح بالمدينة:

قولي لابن عمي!

٢) زنبقة بريئة

من مقلة مفقوءة

لكنها تنادي:

أراكِ يا بلادي!

٣) زنبقة ريانة

من طفلة محروقة

تصيح: يا خليقة

مهلا! أنا عطشانة!

٤) زنبقة شريتها

من بائع مجندل

على سياج منزل

لكنني.. ما بعتها!

إليك يا صديقة

زنابقي الحمراء

زنابقي الدماء

كي تكمل الهدية

ورد.. ومزهرية

من القدس العتيقة!

٦٧/٧/١٤

العار

شفتا حبيبي تقطران دما وغسلينا وقارا

عينا حبيبي تزحفان وراء قنديل توارى

رئتا حبيبي نورسان

خفقا على شوكي.. وطارا

ويدا حبيبي بيرقان

منكسان على الصحارى!

يا من رأى شفتي حبيبي..

يا من رأى عيني حبيبي..

يا من رآه يغيب خلف النهر.. ذلا وانكسار؟

عشرون مزمورا لشاعرك المعذب يا حبيبي

عشرون مزمورا موقعة على خشب الصليب

صليت. صمت.. بكيت.. ثرت

دعوت وجهك من سجوني

ناديت حراسي، وقلت: أراه حيا، واقتلوني!

ثوبي تمزق بين أنياب الصخور،

وجف حلقي

وتهرأت قدماي في الأشواك

من غرب لشرق!

إن نمت.. من تعب أنام

أو جعت.. فالميسور من عشب الجبال

حسب الفقير من الطعام

وإذا مرضت.. أطيب من لمسات كفك في الخيال

لأعود أضرب في الدروب

وأسائل الرعيان والأسرى وقطاع الطريق:

يا بعض أهل الله! هل فيكم صديق؟

ليعين هذا العاشق المذبوح

من وطن الصليب

ابن السبيل أنا،

ألوب على السبيل إلى حبيبي!

أسروه من عشرين عاما

نزعوه مني ذات معتمة، وقالوا أن أنام

قالوا أنام

ولم أزل سهران.. من عشرين عاما

أبكي وأغضب في الظلام

وأصيح.. من وجعي أصيح:

منذا يرد إلي من منفاه، محبوبي الجريح؟

وأصيح: يا طير الحمام

خبره أني ناذر. لا أستريح

حتى يروح في سلام!!

سقوط الأقنعة

سقطت جميع الأقنعة
سقطت. فإما رايتي تبقى،
وكأسي المترعة
أو جثتي والزوبعة
سقطت جميع الأقنعة
سقطت قشور الماس عن عينيك
يا رجلا يصول بلا رجولة
يا سائقا للموت أحلام القبيلة
سقطت تماثيل الرخام
سقطت دموعك يا تماسيح التواريخ الطويلة
سقطت..
وأبراج الصخور الخادعات عشرين عاما:

"أنا يا ضمير الأرض أبراج الحمام"

سقطت أغانيك الحزينة

والأساطير الذليلة

يا حالما بالأرض خادمة مطيعة

تعطيك من أختامها ما شئت

تكريسا لشهوتك الوضيعة

سقطت ممزقة على درب الرياح الأربعة

سقطت.. جميع الأقنعة!

فلأي رب بعد هذا اليوم تلجأ؟

أي رب،

سيبارك النابالم، والنصل الممزق لحم شعبي؟

منذا يبيعك صك غفران

نابك في ذراعي

يا من تخاف من الشعاع

يا من يعز عليك نبض الخصب،

في أرض الجياع

يا كلب صيد الكرش والغليون

يا سمسار ناطحة السحاب

يا حارس النفط المدلل

بين أحضان الذئاب؟!

جعلوا شراييني أنابيبا

لبترول الغزاة القادمين من الضباب

جعلوا شراييني أفاع

جعلوا شراييني حبالا

كبلت شعبي الجريح إلى النخاع

وحفرت من ملكوت بئر النفط

دربي للشعاع

يا من تخاف من الشعاع

ونهشت بالأسنان

جدران الظلام

وهتفت بالجيل الممزق عبر بيداء الضياع:

باسم الحياة إلى الأمام

إلى الأمام إلى الأمام..

ويجيء نصلك في الظلام

وأشد خاصرتي، وتبقي جبهتي،

فوق الرغام

وتظل تصرخ: "يا ضمير الناس! من يحمي من العرب الرعاع

بيت الحزانى العائدين من الضياع؟"

وتشد نابك في ذراعي

وأنا أشيد سدي العالي.. وأحلم

بالمدراس والمصانع، والمراعي

يا من تخاف من المدراس والمصانع والمراعي

من حفنة القمح المبلل بالدموع وبالدماء

للكادحين من الصباح إلى المساء

للثائرين من الجياع!

سقطت جميع الأقنعة

سقطت. فإما رايتي تبقي،

وكأسي المترعة

أو جثتي والزوبعة

وروايتي يا مجلس الأمن الموقر

أصبحت عشرين فصلا

يا مجلس الأمن الموقر

أصبحت عشرين ليلا

عشرين زهرة برتقال

ذبلت على دوار قريتنا المهينة

عشرين زهرة برتقال

جابت طوال الليل أرصفة المدينة

عشرين قافلة حزينة

خرجت مطأطأة الجباه

للشرق – أذكر – للجنوب وللشمال

خرجت تفتش عن إله

عشرين زهرة برتقال

ذبحت هناك.. بلا قتال

وأنا ألوب ألوب في حمى عذابي

متمزق القدمين.. من باب لباب

وجهي احتقان محارب

أنسوه تاريخ الحراب

ووجوه أطفالي صحون فارغة

ناديت من عشرين عاما

يا مجلس الأمن الموقر – آه –

من عشرين عاما

واليوم، عبر صواعق متربصات بالسلام

صوتي يجيئك بالبريد

من غابة الدم والحرائق والمرارة والخيام

صوتي يجيئك زهرة حمراء

في العام الجديد:

من يأتي بيتي قاتلا

يرتد عن بيتي قتيلا!

يا مجلس الأمن القديم

صوتي يجيئك زهرة حمراء

من حقل الجريمة

فإلى اللقاء.. إلى اللقاء.

يا مجلس الأمن القديم

أراك.. في القدس القديمة!

أنا ضمير المتكلم

الذي التحم بالفعل الماضي الناقص

شهوة الكدح من الفجر، موال الإياب

مسرب الوعر، وآلاف الأكف السمر

ترتاح على مقبض باب

والمواعيد أنا، زغرودة الميلاد

والدمع على تطريز منديل اغتراب

وأنا نعناعة التل

أنا النبع وغصن الورد

المزراب والمدفأة المهجورة

السطح.. أنا سنبلة الحقل

الشجيرات.. ودوري القباب

كنت راعي الغنم الأسمر

والأرغول،

كنت النسمة المبتلة الأردان في البحر

الصواري.. الرحلة الليلية.. الشط

انتظار الطفل في باب الغياب

وأنا قطعة أرض،

سكة.. همة فلاح

رحيل في التراب

فإذا بيارة تطلع من لحمي

وأطفال وخبز وكتاب!

كنت أستاذ الرياضيات

والأعمى المغني والربابة

كنت فيما كنت.. حطابا وصيادا

وصيحات وغابة

سائس الخيل. النواطير الكروم

قارئ الأنهار،

تلميذ الليالي والنجوم

سكنت تحت لحائي كل أصوات

القبائل

سكنت تحت لحائي القرية التبنى

بريق العشب

رنات المذاري والمعاول

عبرت وجهي القديم

عربات البن والمسك

وآلاف القوافل..

وضلوعي،

قبل أن تصبح مصفاة لتبرول أرامكو

أنجبت جسراً،

لأثينا ونيسابور والهند القديمة

عبرته الكتب الصفراء،

في رحلتها المسكونة الدرب

بأشباح القرون المطفأة

وأضاءت فكرتي أحداق أوروبا البهيمة

فلماذا يغمرون الجسر بالنابالم

بالدمع.. بأشلائي.. بحقدي؟

ولماذا يطردون الشمس عن ليل

الجريمة؟

منذ أدمى جبهتي عام وراء الأربعين

أيها العالم، صارت رئتي

كبير حداد حزين

واستحالت لغتي

جمرة. سوطاً فدائياً. كمين

أيها العالم، هل تسمع؟

صارت زنبقاتي،

زنبقاتي – آخ – أبواقاً تدوي

لاحتراقي في خيام اللاجئين

وأنا كنت مربيها.. قروناً وقرون!

يسقط العام على العام

ووجهي في الغبار

يسقط العام على العام

ويمتد حواري

لهجتي جامحة كالفرس

وفمي كالجرس

لم يهذبه احتباس الصوت في

القاعات..

قاعات الوفود الكثر والياقات

والويسكي

ولا استقبال أسياد كبار

يحملون الكوكب الأرضي تحت الإبط

من باب مطار لمطار

لهجتي كالفرس

وفمي كالجرس

ولذا تصنع من جلدي السجاجيد

الستارات المماسح

في مقر الأمم المتحدة

ولذا تنهش أطفالي الجوارح

ولذا يكتب إعدامي على كل اللوائح

حسناً.. للمرة العشرين: شكراً!

ذات يوم،

في مقر الأمم المتحدة

يضع العالم إكليلا من الشوك

على ذكرى صقور ومذابح

ذات يوم،

بيدي أحسن تغيير الملامح!

القطار العائد من الصعيد

على نبضات قلبي. آه. كانت تنبض العجلات

على نبضات قلبي. آه

وقلبي كان يا أسوان: واحدة من الودشات

دوالياً وصيحات وجرافات

وقلبي كان،

دفقة ترعة أخرى على الغيطان

وكان يغص فلاحين من شيب ومن شبان

وكان يغص بالأطفال والنسوان

وقلبي كان. آه. يغص بالأحزان

ويا "قطر" الصعيد سمعت في حيفا

زغاريد البنات ونخوة الجدعان

وفي حيفا،

رأيت جبينك المشجوج يا زهران
رأيتك عند حد الغيط جسرا يا صاح حسين
وصدرك يحمل الشارة
وبست زهيرة البرقوق في صدرك
وفي حيفا
حلفت بغابة الحلفاء
والميثاق والإنسان:
حرام أن تنام العين عن ثأرك
ويا "قطر" الصعيد، سمعت موالا
ولن أنساه ولن أنسى الفتى الغناه:
"يا مسافر القاهرة سلم على الغالي
وقل له عليت جباهنا بسدنا العالي
وقل له إزاي تسيب يا أبو البلد بلدك
وإزاي تسيبني وأنا ما كملتش موالي؟"
وعبر نوافذ الموال

تراءت يا قطار الكادحين حدائق الأجيال

تراءت دفقة الماوية العذراء في الكثبان

وآلاف المداخن، والمراكب، والمعاهد،

والمراعي، والعيون السود، والأغصان

وعبر نوافذ الموال

تراءى عالم،

لا خوف فيه على غد الأطفال!

(الفلاحة)

الأفق اختض، انخفض الأفق

ماذا أعددت لهم يا شرق

أسوار الحنطة حالمة

من ينقذ أحلام الأسوار

من ينقذها من منجل برق

ماذا أعددت لهم يا شرق

– من تلك الفلاحة؟ من أين النار؟

الجسر انهار!

الجسر انهار. قفي ياآلات الموت!

لا لمحة. لا صوت .

لم يظفر قمل الغزو بغير الفأس

وحذاء الفلاحة

والجسر المنهار!

– من تلك الفلاحة؟

طفل بلغاري يقضم تفاحة

في خبث – لا أدري!

وتناثر أزهاراً حمراء

تدمي شفتاه على بعض الأسماء

أعرف منها.. ليليانا

ليليانا ديمتروفا!

الكشف

زمليني يا خديجة

زمليني

فلقد أبصرت وجهي

في حراء الموت

محمولا على رؤيا بهيجة

طفلة تخرج من أنقاض مكة

وتويج من دم في ربعنا الخالي، ومصنع

وينابيع وتمثال رخام

وبساتين وحبلى تتوجع

زمليني يا خديجة

زمليني: صوت أنصاري يعلو

وجه أنصاري يعلو

صدر أنصاري يعلو في الزحام

من توابيتي وأبراج الحمام

زمليني، زمليني يا خديجة

مزامير ٥-٦- ٦٧ في الذكرى الأخيرة

مزمور لرئيس الديوان الملكي

النائم في ركن الغرفة

خجلاً من حزن المندوب العكي

في حفلة تأبين الضفة:

الرب معي،

ومعي مفتاح الملك المحروس بأرواح الأسلاف

وسفير السيدة العظمى

وكبار الضباط، وضباط الصف معي

ممن سأخاف؟

مر بقصري جيش الله فقلت:

الله معك!

مر بقصري جيش الشيطان فقلت:

الله معك!

وظفرت بنيشان ذهبي من مولاي

وبمائدة باسمي في حفلات الشاي

وبكنز من علب السردين، وشحنة سكر

وبصفقة أحذية، وسفينة بطانيات

وإطارات السيارات

بعد رحيل العسكر.

الرب معي ووكيل الرب معي وجنود الرب

فالمجد الأول: لإله الحرب

والمجد الثاني: لإله الحرب

والمجد الخامس والسادس والسابع والستون

لإله الحرب!

والنوم النوم النوم

في ركن الغرفة

لرئيس الديوان الملكي

الساخر من حزن المندوب العكي

في حفلة تأبين الضفة

سيروا خلفي.. وعيون القدرة ترعاكم يا قوم!

مزمور لرئيس الأركان

الميجور جنرال

ووزير الحربية والصحة والإعلام إلخ ..

أعداء الله احتقنوا بالحقد على الله

غشوا الخمرة بالماء

باعوني زغلا بالفضة

تركوني عرضة

للرجال التافه والفلاح الأحمق والعمال المغمورين

أعداء الله ورسل الله وكل القديسين

وصموني بالجبن، وكانت غارتهم

غادرة تحت جناح الليل

وكانت نفاثاتي نائمة في طهر حمامات سلام

وصموني بالجبن

وكانت دباباتي تعبث لاهية في الطين

أعداء الله الملعونون بكل وسام

المنبوذون من الرب على مر الأيام

آمين..

حيث صار الموت عادة

"بعد لقاء مع الأطفال الفلسطينيين اللاجئين والأطفال الجرحى من مدرسة بحر البقر. كان لقاؤنا في بوتسدام، وهناك تقاسمنا الدموع والحلم."

افتتاحية:

(أبي آدم الحزن،

من ضلعه امتشق الحالمون

حراباً،

ومن ضلعه امشتقوا

زهرة للفرح..)

ويقول الشاعر والشاهد:

أضرب بحر الدم

بعصا أحزاني السحرية

لنشق طريقاً للبوابات السرية

ولنعبر يا قوم

أحلامي شاهقة والدرب طويل

والنسل الآتي

يقفز دون مظلات ومواقع إنزال

يقفز.. من رحم... لرجولة

ويزيح عن الكتب الموروثة والسيف الموروث

أكداس رماد ورمال

فهدوءاً، أجدادي الباكين لأجلي في صمت

الباكين لأجل قناطرنا البيضاء

ولأجل سنابلنا المختنقة

تحت ضجيج الأعشاب البرية!

ويضيف القاضي والشاعر:

أضرب بعصاي السحرية

في غرف التحقيق المفتوحة للناس جميعا

لجميع الناس

من كل الأجناس

وترد بنادقهم.. هم ..

ويكون جواب واحد:

ماذا نفعل غير القبض على الأسرار

في أعماق الصدر لنختصر الأعمار؟

هل نصلح نافورة ماء

في ميدان ينتظر طقوس التدشين؟

هل نصلح صبابة راع

ومرشات لزهور الساحات؟

أو أرجوحة طفل أو عكازة شيخ؟

ويضيف الشاهد والقاضي:

لم يجد الحقل المهمل تفسيراً للشوك!

لم تجد الجدران

تفسيراً لطلاء لم يتجدد من عشرين

لم تجد الأشجار

أيها الحي الباقي

بارئ قيامتنا، بارك وجدنا المقيم كروحك

خذ بأيدينا المشتعلة بالحياة

لنشهر ميلادنا، من مآذن القدس وجرسياتها

وفي أعالي صبانا الزاخر بك

نستعيد الذكريات على ضفاف دجلة!

(أيتها المتبددة في زحام الأرض

لماذا كنت بعد كل هذا العدم؟

لماذا تشكلت بعد كل هذا الهلام؟

ولماذا أفقدك – بعد كل هذا الفقد؟!)

ويضيف الشاهد:

خمسة آلاف من أحبابي

عشرة آلاف.. عشرون

– لا أذكر – مازالوا في طابور الحرب

لتسجل أسماؤهم المحذوفة

في كتب الموتى

وعلى أرصفة النكبة ينتظرون

سيارات الإسعاف الموعودة

(لا فرق.. صليب أحمر

وهلال أحمر

أو نجمة داوود الحمراء)

أحبابي قبلوا بكفاف يومي

لكن دفعوا الثمن إلى آخره

دفعوا ثمناً لكفاف دهري

قبلوا. وانتظروا عدل وكالات الغوث

لكن السفن جرت،

كيف تشاء الريح..

ويضيف الشاعر والشاهد:

فقدت أل التعريف

قيمتها.. فقدت قيمتها

أل التعريف

فتعلن موقفها الآن وحروفي الشمسية

وحروبي الشمسية

والدبابات الطيارات الرتب الرادارات الخطب الشمسية

موقفها. الآن.. الآن

"الآن الآن وليس غداً

أجراس العودة فلتقرع!"

كمثراة ذابلة وطني. قلب كأسد

ينبش في أنقاض الذكرى

في حمأ البركان الخامد

عن صور الآباء المنفيين والأبناء المنفيين

حيث غدا النوم على حد السكين

من عادات القرن العشرين

حيث غدا الموت اللا معقول

عادة عادات الشعب المجهول

في هذا القرن.. العشرين!

تذكير آخر بالافتتاحية:

(أبي آدم الحزن،

أعطى. وصلى. ونام

وجئت لأبصره عن كثب

لألمسه مرة ثم أمضي

لأحضنه مرة ثم أمضي

لأحفظه مرة ثم أمضي

وبين ضلوعي جميع العرب)

ويضيف الشاعر والشاهد والقاضي:

من أعوام ألف

وأنا أحلم بشجيرة ورد.. لا غير

وقبيل الموت الأول

كان خروجي من آخر أبواب الحلم

وإذا في الحوض.. شجيرة ورد

ومددت يدي مددت يدي مددت يدي

وتكاثر من حولي أهلي

مدوا أيديهم مدوا أيديهم مدوا أيديهم

لكن الموت اللا معقول

أصبح عادة عادات الشعب المجهول

في هذا القرن العشرين!

ويضيفون جميعاً:

بيدي هذه

بأصابع كفي هذه

سبلت جفوناً لم أبصر روعتها قبل الموت

وشددت زنوداً لم ألمس روعتها قبل الموت

سبلت جفون أحبائي

وشددت زنود أحبائي

بيدي هذه

بأصابع كفي هذه

مهلا. مهلا. لم أكمل

مهلا. لا تتهدج ياصوت!)

رقدوا حتى أنهض من موتي السابق

وأنا أبصرهم

منتصبين وراء الأشجار الوعرية

ووراء صخور الوديان البنية

أبصرهم

أعينهم تلمع كمرايا سرية

تنقل للجيل الصاعد

من قعر الليل الراكد

أسرار الميلاد.. إشارات الميلاد!

ويضيف الشاهد والقاضي:

أعرف وطني.. من حد السكة للبيدر

وغداة تطول مسافات الغربة

أعرفه أكثر!

أعرف وطني

من ذا يعرفه مثلي؟

في لغتي تتبادل وديان وجبال

وجهات النظر عن الطقس القادم

في لغتي تسأل بيارة

وتفكر أحواض وكروم

بشؤون أغان ومواسم

لكن.. ما عادت في لغتي

أخبار الصحف السيارة!

أحفظ عن غيب وطني

أحفظ أغنية منسية

وخرائط ضاعت.. وهوية

ضاعت.. وحكايات شعبية

من ذا يحفظه مثلي؟

حين رأوني أنمو في كل جهات الأرض

قالوا: نحتكم إلى التاريخ

وضحكت. بكيت.

عايشت صنوف التاريخ جميعاً

عايشت جميع صنوف التاريخ

الزائف المدسوس

والكاسد.. لم تنفد طبعته الأولى

والمكتوب بدمع العين ودمع القلب:

قري يا عيني.. مارست التاريخ

قري.. أحسست التاريخ

يا عيني قري.. أدمنت التاريخ

وكتبت بدمع العين ودمع القلب:

صنعوا من كرهي وطناً

صنعوا من موتي وطناً

وأنا.. وطني،

حبي عتبة بيتي، مقبض بابي،

صورة جدي،

واسمي المنقوش على الجذع السري..

وينادي الشاعر:

ومتى ننشد للحق

إن لم ننشد ساعة ينتصر الباطل؟

ومتى ننشد للحب

إن لم ننشد ساعة تنتصر البغضاء

ومتي ننشد للسلم؟

إن لم ننشد في أحزان الحرب؟

أنتم يا حراس الليل المنطفئين على الأقفال!

أنتم. يا شعراء الحمى والزقوم!

من لا تقنعه القبلة لا يقنعه السيف

فلنعط الشفة مهمتها

ولنعط السيف مهمته!

يا طلاب العلم من اللحد إلى اللحد

حين تغص منصات العالم

بالفتنة والنار الموبوءة

تنضج فاكهة العقل الممنوعة

وتصير نبوءة

حين تذل منصات العالم

تنضج فاكهة القلب

فليسعفني العالم

بنشيد آخر للحب

وأنا أقضم تفاحة موتي

وأغني.. في فرح وشهية!

("الاتحاد" – ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠)

المنارة

لم يكتفوا بالحزن،

لم يجترحوا الموت من المرارة

لم يرتدوا قوالب الرصاص

لم يغرقوا

لم يسقطوا

لم يشحذوا الخلاص

من خبر تنشره الجرائد السيارة

فلتقفي لأجلهم دقيقة الحداد

يا كل جهات الأرض

لأنهم ماتوا...

وفي جباههم،

منارة!

في غرفة التحقيق

- اسمك؟

- أيهم تريد،

الأول، الثالث، أم هذا الذي يحمله

باسبورتي الجديد

- عمرك؟

- موتان ربيعيان وليلة تضمر لي أخرى،

أو النهار

- مهنتك الأولي؟

- مغن يافع. وملح

يسقط فوق جرح

- مهنتك اليوم؟

- قتيل ساخط منجم قتيل

تارة.. مغن مرهق

وقاتل جميل

– هوايتك؟

– الموت بين الضحك والبكاء

– رغبتك الأخيرة؟

– أن تعرفوا اسمي كاملا

وواحدا. وواضحا

وربما يكون من رغبتي الأخيرة

أن تطلقوا سراحي!

رمضان كريم

مال ميزان الدم الباهظ.. مال

واستردت روحها أمي،

ولم يجبن أبي

عن ولوج الحزن والداء العضال

ومن الغربة في أغوارهم عاد الرجال..

يا جياد الموت، مدي الأجنحة

يا جياد الموت، مدي الأجنحة

يا جياد الموت

مدي عنق الآتي،

وطيري

من غمار المذبحة

عبر قطبين ترابيين، من نار ونور

مال ميزان الدم الباهظ.. مال

وأنا في شرك الموت

قصيا لا أزال

مجهدا في بطن هذا الحوت مطواتي وظفري

فتمهل يا بلال

دع أذان الفجر

حتى يسجد الليل على موطيء فجري

ويشج الحقد والفولاذ

عن وجهي

وعن جبل الشيخ

وظهري

والقتال..

لا تؤذن يا بلال

لا تؤذن، بعد فالحرب سجال!

لجبيني ضفروا شوك الخطيئة

وصموا جرحي بحمى الذل

وامتدوا مع الأسطورة المستوردة

قتلوني.. وتمردت على الموت

تمردت على عجز الخلايا المقعدة

لا تلوميني إذن

لو تقمصت الصلاف المردة

لا تلوميني

إذا صارت شراييني أراغيلي

وموتي مستحيلي

أنا أعلنت المشيئة

وستأتين على سرة مولود وأهداب قتيل

وستأتين، لأني شئت أن تأتي

وأعلنت المشيئة

أيتها الشمس البطيئة!

٧٣/١٠/١٧

الطريق إلى جبل النار

(عـن جـذي الثـورة، السـجناء الأحـرار مـن نـابلس ومـن كـل بيـت فلسطيني، وإلى جميع مقاومي الاحتلال)

حفظت المسافة عن ظهر قلب، حفظت المسافة

تذكرت كل الصخور وكل الشجيرات، والأعين السود

والعسليات، والزرق والخضر والأغنيات،

تذكرت كل المفارق، راجعتها مفرقا مفرقا، واستعدت

القرى قرية قرية

تغير شيء هنا وهناك تغير باب ومقهى وساحة

لعل المخاتير ماتوا

لعل المضافات صارت دكاكين بن وزيت وأقلام حبر

تغير شيء

أرى لافتات جديدة:

كراج فولكسفاغن، وفورد

محلات موبيليا النصر

مغسلة الشرق

أوتيل فلسطين

شيء تغير

وأكثر

أرى قرية دمروها

بآخر ما صاحت التكنولوجيا

ومقبرة شيدوها

بآخر ما صاح فن القتال

أنابيب ري

شوارع أسفلت

ملاه

ملاجيء

سياج مكهرب

جهاز اتصال ومركز شرطة

أغان مريضة

مناهج علم، عن الحقد والقتل والذكريات البغيضة

إلخ .. إلخ

تغير شيء، تغير

وأكثر

أرى معمل (الشايش). السجن. والعلم الأجنبي

أرى اللغة الأجنبية

أرى سحنة الفاتح البربرية

ورعب يديه على مقبض البندقية

تغير شيء، تغير

والله أكبر

والله.. أكبر

حفظت المسافة عن ظهر قلب، حفظت المسافة

هنا يسلس الدرب

نأخذ صورة شمس الغروب وصورة طفل يسوق خرافه
وعما قريب تهل منازلها البيض.. أكداس صابونها
تهل المدينة – سدر الكنافة...
حفظت. أجل يا حبيبي. حفظت المسافة
وصلت المدينة بعد غروب شموس كثيرة
وصلت وفي رئتي رسالة حب
وبعض أغاني الوقوف من الأرض حتى السماء
وبعض المراثي الكسيرة.
وصلت المدينة ليلا، طرحت التحية، ردوا
بأحسن منها، توسمت خيرا، وصحت:
أنا أيها الإخوة الطيبون
رسول جبال الجليل إلى جبل النار
أحمل من ربع قرن، رسالة حب مريرة
قطعت جبالا كثيرة
قطعت وهاداً كثيرة

وبين حصي الطرقات نزفت.. نزفت دماء شبابي الغزيرة

ولم أسترح، بعد، كيف ترى يستريح رسول

على ظهره، بعد عبء الرسالة

كيف ترى يستريح،

وقد وشحته دماء المسيح .

وإني رسول جبال الجليل إلى جبل النار

من مرشدي؟

يقولون أنت اهتديت إلى جبل النار

أصرخ يا ناس لم أهتد

إلى جبل النار. هل تسمعون وهل تفهمون؟

إلي جبل النار لم أهتد

فمن مرشدي؟

الى جبل النار من مرشدي؟

تغير يا ناس، شيء تغير

ترمد، يا ناس شيء وأكثر

ترمد. لكن تحت الرماد جذي

هل تموت الجذي؟ هل تموت؟

وتلك البيوت؟

تفجر إذن جبل النار

وانفض رماد الأسى والسبات

تفجر بنار الحياة ونور الحياة

تفجر

والله أكبر، الله أكبر،

الله .. أكبر !

الاتحاد ١٩٧٤/١٠/٢٥

ودم الشهيد رسالة نبوية

لا سحر إن نطق الرماد الأبكم
تحت الرماد حرائق تتضرم

أنموت صمتا حين ألف جريمة
تنهال: "يا أهل القبور تكلموا"

فتفجري يا صرخة مكتومة
وتكسري يا صخرة تتكتم

ولتحشد الدنيا هنا أحداقها
لترى الدم المسفوك يتبعه دم

لا مدية الجزار كف غليلها
عنا.. ولا شبع الهلوك المتخم

والليل نصل والنهار عقارب
والموت لا يطغى ولا هو يحجم

والجذر يأبى أن يقايض غمده
يأبى، ويأبى الشح عرق مفعم

فلترتطم بالأرض صاعقة الأسى
ولتمتشق غضب الشعوب جهنم

ولينهض المدثرون بشارة
الموت فيها حكمة ومعلم

ربخت علينا العاديات وفرخت
والليل، طال الليل طال الأسحم

ولكل فجر شمسه ولفجرنا
شمس من الشهداء يشعلها الدم

يا كفر قاسم.. للضحايا عيدها
والعيد أنت وعرقك المتقحم

حجت إليك قلوب شعب نازف
حجت إليك.. أغير جرحك زمزم

ولكم وقفنا بالقبور، وإننا
نستلهم الشهداء إذ نستلهم

ولكم نهضنا والقيود بواهظ
ولكم سجدنا والتراب مغمغم

ولكم أهبنا بالقرابين أبشري!
ولكم غرمنا.. غير أنا الغنم!

يا كفر قاسم.. والكفاح مسيرة لا تنتهي حتى يطال المجرم
كنت البشير بأن شعبا لم يزل كوني النذير.. فلا يزال الأرقم
ما غاب "شدمي" والزمان شهيدنا في كل يوم سافل يتشدم
والقاتلون شهية مفتوحة وبكل أفق قاتل مستحكم
ولطالما كظمت مراجل غيظنا ماذا ترى فوق الكظيمة نكظم؟
يا كفر قاسم.. عز جرح ناغر في صدرك العاري، وعز البلسم
ومن الأولى تركوك صدرا عاريا ومن الأولى سفكوا دماءك..من هم
أهم الغلاظ الغبر غل غليلهم أهما يداي..؟ سألت لكن أعلم
قست الثعالب، والكروم مباحة وقسا نواطير الكروم النوم
لكن ناب الغدر أيقظ هاجعا شكرا لناب الغدر.. أضاء المعتم
صقل الدم المصقول شعبا صامدا صد الصقور ذليلة تتبرم
شعبي!وكم صدعت صواعق نبضه صخرا على صدر المشيئة يجثم
شعبي! وكم دبابة صدت على أعقابها بحجارة تترجم
شعبي! وكم أزرى القتيل بقاتل وكم انتشى يوم الفداء متيم
فليسمع السفاح صوت قتيله ولتسمع الدنيا، وتصغ الأنجم
يا جبهة السفاح لا تتشامخي نعل الشهيد أعز منك وأكرم
ودم الشهيد رسالة نبوية صلوا على روح الشهيد وسلموا
والرافعون إلى السلام عيونهم زحف وكل عسيرة تتهدم
يا كفر قاسم.. فانهضي وتطلعي ما ضاع هدرا في مشارفك الدم

(١٩٧٦)

القارات

أي جاهل كنت قبل أن أحفظك

قبل أن أحفظك عن ظهر قلب

أي جاهل كان العالم

قبل أن يتعلمك

أي جاهل كان العالم

أنت حضارة الحب

وأنا تلميذ فهم درسه

قارات الكرة الأرضية

أجل أعرفها يا حبيبتي:

آسيا. إفريقيا. أوروبا .

أمريكا الشمالية. أمريكا الجنوبية.

إستراليا. ابتسامتك المشفقة

وقلبي

قلبي هذا الذي أحمله بين يدي

قنبلة موقوتة!

اعتراف لكاهن الموت

أبت الطيب إني أعترف

دنس البهتان روحي

ولهذا اعترف

لم يقدني صاحبي فرجيل في وادي الجحيم

لم تكن تلك سوى بياتريس،

لم نعبر إلى المطهر

لم نرق إلى الفردوس

من نحن لكي ننعم بالغفران؟

أخطأنا ومتنا

وانتهينا

غضب الله علينا

.. وانتهينا .

لم أعد أعرف

ساعات الفجر الأولى

زرقاء

العندليب الأول على شجيرة الليمون الزرقاء

أزرق

أنهار العالم تلتف على عنقي الأزرق

أنشوطة زرقاء زرقاء

جفون عيني

زرقاء زرقاء

أتلاشى في الزرقة

أتلاشى

لم أعد أعرف لون عينيك!

أحبك كما يشتهي الموت!

أثقل وزناً

وأقصر قامة

أعتل تجربتي وأمضي

ما دمت قمة العالم

ما دام ظهر الكرة الأرضية محدبا

فأنا أهبط وأبتعد أهبط وأبتعد

ذات يوم تتلقفني الرمال المتحركة

أغوص رويدا رويدا في أبد حبك المعتم

أغيب عن الوعي.. أختفي عن الأنظار

ستشهد الجماهير طقوس موتي

ويحسدني المغامرون والشعراء أما أنت،

فتلقين جوهرة جديدة في صندوق شهدائك

أحبك

لا تندمي

لا تمدي يدا لتنتشليني

اسمحي لي أن أحبك

كما يشتهي الموت..

أحبك.. كما يشتهي الموت!!

الخمسة

من كل جهات العالم سيجيء الخمسة

الأول

يحمل

حكمته ويعيد إلى المدلج شمسه

الثاني

يبتهل إلى العقل السامي ويسدد قوسه

الثالث،

يأتي برغيف ويوزع في كل نفوس الدنيا نفسه

الرابع

يعلن ميلاد الحق ويبني قدسه

الخامس

يتقمصني. يرسلني جسدا لا ظلا..

فلتصهل خيل الموت على قمة جبل الجرمق

ولتصهل خيل الموت

على قمة روحي!!

الفهرس